محمد إبراهيم

الهدية

رواية

عندما يكون الحب فرصة ثانية للحياة

دار دَوِّن

الــهــديـــة

محمد إبراهيم: الـهـديـة، روايـــة

الطبعة العربية الأولى: يونيو ٢٠٢١

رقم الإيداع: ١٦٩٧١ /٢٠٢١ - الترقيم الدولي: 1 - 273 - 806 - 977 - 978

جَميـع حُـقــوق الطبْـع والنَّشر محـْــفُوظة للناشِر

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة

بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

© دار دَوِّنْ

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com

محمد إبراهيم

الـهـديــة

روايـــــة

دَوِّنْ

للنَشرْ والتَوزيعْ

الإهـــداء

إلى الأمل.. أنت الأهم.. أنت الحياة

شكرًا

محمد إبراهيم

- ١ -

(طائر على الطريق)

بحثت «مها» عن رقم «يونس» في الهاتف بلهفةٍ شديدة، كانت يديها ترتعش وتركيزها شبه منعدم ودموعها تشوش عليها الرؤية تمامًا. لم تتحدث هي ويونس منذ فترة طويلة. تعمدت إخفاء مرض والدتهما عليه ظنًا منها أنها أزمة عابرة مثل كل مرة، فقد اعتادت على مثل هذه الأمور في الأعوام الأخيرة.. ويونس منذ سنوات عدة أصبح كطائر شريد.. لا يستقر في مكان أكثر من بضعة أشهر.

اعتادت مها على زيارة الكثير من الأطباء وشراء العشرات من الأدوية والعديد من وخزات الإبر والأزمات المفاجئة التي لم تعد مفاجئة بعد الآن.. أصبح روتين يومها العادي هو الأدوية والألم. والليالي التي قضتها مها نصف نائمة على الأريكة بجانب فراش والدتهما أكثر من تلك التي قضتها في غرفتها الخاصة.. رائحة المطهرات الخاصة بالمستشفيات التي تتردد عليها في الأشهر الست الأخيرة تحديدًا أصبح هو الآخر أمر اعتيادي تمامًا.

كل هذا لم يشكل مثقال ذرة من تفكير يونس الذي خرج ولم يعد. ربما عاد بجسده بضع مرات لكنه لم يعد أبدًا ذلك الشاب الحالم بالمنزل الدافئ والعائلة الصغيرة.. ابتلعته الوحدة والشغف للسفر. باع نصيبه في منزل العائلة القديم والذي كان كافيًا لشراء كرڤان أحلامه.

ذلك المنزل المتنقل الذي لطالما حلم به، كان في البداية مولعًا بأنواع السيارات والدراجات الرياضية منذ نعومة أظافره، مولعًا بالحركة والانتقال.. يفضل أن يغرق بين الأمواج المتلاطمة على أن يعيش مستقرًا أمام الشاطىء مهما أغراه جماله.. كان يونس عبارة عن كتلة طاقة مشعة وشعلة نشاط لا تنطفئ أبدًا.. أو هكذا كان يظن من حوله.

إلا أن الحقيقة كانت تكمن في أن يونس كان يفضل الهرب.

منذ رحيل والده، شعر يونس أن رحيله أخذ معه ما بقي لديه من استقرار.. وعندما حانت اللحظة الحاسمة قرر يونس أنه سوف يعيش متنقلًا ما بقي له من عمر.. لم يتردد عندما رأى إعلان ذلك الكرافان المتنقل.. ورغم سعره الباهظ وتعقيدات اقتناء مثله في مصر.. إلا أنه استغنى عن كل رفاهيات حياته وتنازل عن الجزء الأكبر من ميراثه المعقول ليبتاع هذا الكرافان الذي أقنع نفسه في وقتها أنه حلم حياته.. اختار يونس عدم الاستقرار في مكان كنوع من الاستقرار المؤقت.

* * *

بعد محاولات عدة نجحت مها في الاتصال بيونس.. كانت قد أصبحت في حالة إنهيار تامة قالت وصوتها مملوء بالحزن:

- يونس الحقني.. ماما بتموت.. إحنا في مستشفى "الدرة".. تعالى بسرعة أرجوك.

انقلب وجه يونس من هول الصدمة ومن شدة الارتباك، أغلقت مها الخط وجلست تبكي بينما ارتبك يونس تمامًا.. لحظات قاتلة من الصمت والدهشة وتخيل أسوأ السيناريوهات الممكنة..كان على طريق العلمين على موعد مع أصدقاء يعرفهم بالكاد منذ أسابيع قليلة.. لم يكن متجهًا لمكان محدد.. كان في إحدى جولاته اللانهائية بحثًا عن اللاشيء.. فقط بعض الأصدقاء أو المعارف يقضي معهم بعض الأوقات ثم يعود إلى عزلته المستمرة.

الآن أمامه على الأقل ثلاث ساعات قبل أن يصل إلى المستشفى. ثلاث ساعات كافية لأن يقتله فيهم التفكير وأن تبتلعه فيهم دوامات الأفكار السوداء التي تحاصره مثلما يحاصره الزحام، كيف تحول طريق سفر صحراوي كهذا إلى طريق مزدحم.. يتخلل صوت أبواق السيارات أصوات تأنيب ضميره.. يشعر أنه ليس في مواجهة يوم سيئ فحسب وإنما يشعر أن كل شيء يتحالف ضده مانعًا إياه أن يصل في الموعد المحدد، كل ما حوله يتآمر ليحرمه من سماع صوت أقرب الناس إليه.. أو قول أي كلمة وداع.. كان يشعر بأن المسافة الآمنة التي أخذها هربًا في الماضى أصبحت الآن هى المسافة التى تلتف حول عنقه لتتلذذ بقتله.. تستبيح عذابه بقدر ما عذبت من أحبوه في غيابه..

في تلك الأثناء دخل الطبيب لمتابعة حالة والدتهما.. ليجد مها تحتضنها وهي في حالة إنهيار تامة.. قام الطبيب بمعاينة الحالة.. وجدها قد فارقت الحياة لتوها، حاول السيطرة على الموقف وتهدئة مها قائلًا:

- متتقلقيش يا أستاذة مها.. سيبيها بس ترتاح شوية..

وكان صوته مهتزًا مؤكدًا لشكوك مها..

- دكتور أنا عارفة أنها ماتت.. إتشاهدت على إيدي حالًا.. أرجوك سيبني معاها لحد ما يونس يوصل

سألها الطبيب:

- مين يونس؟

- يونس أخويا الصغير.

ثم انهارت باكية من جديد.

انصرف الطبيب دون أن يتفوه بكلمة واحدة.. بعد ساعة كاملة وصل يونس إلي المشفى وهو في حالة يرثى لها..

كانت موظفة الاستقبال منشغلة بإحدى المكالمات الهاتفية.. مضت ثوان وهو ينتظرها في توتر شديد.. لم يستطع أن يسيطر على أعصابه.. انفجر غضبًا في النهاية.. أخذ السماعة من يدها وسألها ساخطًا:

- زينب مراد السكري.. غرفة رقم كام؟

اندهشت الموظفة من ردة فعله.. لكنها تراجعت عن فعل أي شيء حين استجمعت سؤاله «زينب مراد السكري «.. صمتت للحظة ثم قالت بأسى:

- غرفة ١٣٣ يافندم.

ومن لهجتها أيقن يونس أنه جاء متأخرًا..

وصل إلى الغرفة لاهثًا.. كانت مها مازالت واضعة يدها على جبين والدتهما.. تتمتم ببضع آيات من القرآن الكريم.. تأكدت شكوكه الموجعة.. عرف أن كل شيء قد انتهى وأنه عاد أخيرًا.. لكنه عاد متأخرًا.

احتضن مها وانفجر الإثنان بالبكاء..

في مثل هذه اللحظات يكتفي كل إنسان بوجعه ولا يقدر أحد على مواساة الآخر مهما حاول.. نتشارك الأحزان فقط أملًا في أن ينزل الله سكينته على الجميع.. نتقبل قدره بلطف منه ونمضى في إجراءات استخراج تصريح الدفن لمن فقدناه..

ما أصعب تلك اللحظة التي تجد نفسك فيها تكتب نعيًّا باسم من تحب.. لتردده الميكروفونات.. تلك اللحظة التي تمسك بها هاتفك لتفتح حسابك على الفيسبوك وتكتب "أمي في ذمة الله".. تشعر حينها أنك قد كبرت مائة عام بين ليلة وضحاها..كبرت بما يكفي لتكون المسئول عن كل شيء.. أنك من يجب عليه أن يحادث الرجل الذي يقوم بالانتهاء من تفاصيل الدفن "التربي"، أنت من يكلفه بأن يفتح العين الخاصة بالسيدات وأن يجهز الأسمنت والشيح.. أنت من عليه أن يتصل بجماعة الغُسل والتكفين.. وينتهي من ترتيبات وتجهيزات صوان العزاء..

أخذ يونس يسأل نفسه: كيف لك أن تفعل كل هذا بينما كل ما تريده هو أن تبكي.. تبكي فحسب.. تبكي حتى تفقد الوعي وتستيقظ لتجد أن كل ما حدث كان كابوسًا ليس إلا.. وأنك مازلت طفلًا عائدًا من المدرسة لتوه تغني صاعدًا سلم البيت القديم.. تعرف أكلتك المفضلة من رائحتها قبل أن تطرق الباب حتى.. تدخل وتلقي بحقيبتك في أي مكان.. وتتسلل إلى المطبخ لتسرق أصابع البطاطس المقلية دون أن تلمحك أمك.. فإن رأتك ناولتك المزيد منها في حنان شديد..

تمتم لنفسه:

لازلت أذكر دفئ منزلنا القديم.. كيف عاد أبي حاملًا أول تلفاز ملون على رأسه من شدة الفرح.. وكيف كانت ليالي العيد تبدو ناصعة الألوان من شدة الدفئ والبهجة.

كيف كان خبز أمي مصنوعًا بحب شديد.. كيف كان لأبي ملعقة مميزة عن الجميع.. كيف كانت أمي تقول لي: "ملعقتك أهي.. دي ملعقة بابا".. كيف كانت تميزه حتى في ندائها له.. وكيف كان أبي عطوفًا يحتوي الجميع بعطفه كمعطف فرو في برد الشتاء.. كان أبي طويل البال قوي الكفين.. عندما كنت أمسك في قبضته لا أخشى شيئًا أبدًا.. وعندما أحتمي خلف ظهرة لا يمسسني سوء.. بالأمس القريب كنت أركض خلف ظله.. أذهب معه إلى صلاة الجمعة.. وأذكر حين قرأ الإمام □ۈ ۇ ۆ ۋ ۅ ۉ ۋ ې ې ﯦ □ تلك الآية التي لم أفهمها سوى بمرور الأيام.. كيف للإنسان أن ينسى وأن يُنسى كأنه لم يكن..

يا إلهى ماذا حدث بعد هذا.. كيف كبرت لهذة الدرجة.. متى كبرت لهذه الدرجة؟ فقد كنت بالأمس أختبئ بين أحضان أمي وها أنا اليوم أقف في عزائها؟!.. ما أسرع الأيام.. هكذا كانت تقول أمي دائمًا.. آه يا أمي كيف لي أن أقتنع بأنك لن تعودي معنا أبدًا؟!

* * *

انتهى اليوم الطويل.. انتهت مشاهد الدفن والعزاء ومشاطرة الأحزان.. انتهى مفعول البنج الذي تحمله الصدمة.. دخل كل من يونس ومها ليستريحا في شقتهما بعد عناء..

بعد ساعة فوجئ يونس بجسد مها وهو يهوي أرضًا من شدة التعب.. أسرع في طلب عم «حامد» بواب العمارة.. ساعده في حملها بدوره حتى وصلت عربة الإسعاف.. توقع يونس أن الإرهاق والصدمة قد تسببا في نوبة إغماء اعتيادية.

في غرفة الطوارئ حدثت المفاجأة الكبرى.. أخبره الطبيب أن ما حدث ربما سببه أنها لم تأخذ المسكن اليوم.. سأله يونس في استغراب:

- مسكن ايه؟!.

فقال له الطبيب متعجبًا من سؤاله:

- المسكن اللي بتاخده بسبب الكيماوي

ثم شرح الطبيب مفسرًا أنها تعاني من سرطان البنكرياس وأنها في مرحلة متأخرة منه.

لم تشأ مها أن تخبر أحدًا بهذا الأمر خوفًا على والدتها التي كانت تعاني هي الأخرى من مشاكل بالقلب..

فما كان من يونس إلا أن أسند ظهره للحائط وجلس يائسًا لا يدري ماذا يفعل.. وجد نفسه يردد وهو يبكي «لا إله إلا الله».

ثم جاءته رسالة على الموبايل.. نظر إلى الشاشة فوجد أحد أصدقائه الجدد الذين اعتاد على مقابلتهم في سفره الدائم.. وكان يسأله في الرسالة النصية:

- «إيه يا عم يونس جاي ولا نسبق احنا ونسيبك لوحدك؟!»

* * *

- ٢ -

(تذكرة عودة)

استيقظت مها لتجد نفسها ممددة على سرير غرفة الطوارئ بينما يونس ممسكًا يدها في حزن شديد.. سألته في دهشة:

- إيه ده أنا فين وإيه اللي حصل؟!

ليجيبها يونس بنبرة عتاب:

- انتي ليه مقولتليش يا مها؟!

- قولتلك إيه هو الدكتور قالك حاجة؟!

- أيوة يا مها أنا عرفت كل حاجة ليه تشيلي شيلة كبيرة أوي زي دي لواحدك؟!.. ليه تحسسيني إني أناني للدرجة دي وتطلعيني قدام نفسي واحد اختار راحته وساب أمه وأخته في عز ما هما محتاجينله ومشي؟!

ترددت مها كثيرًا قبل أن ترد:

- كنت بدور على راحتك يا يونس. زي ما انت كنت بتدور عليها.. كنت مرتاحة انك مرتاح حتى لو بعيد عننا.. كنت بدعيلك ربنا يجمعك على نفسك اللي راحت منك بعد بابا ما راح مننا.. كان عندي أمل تلاقيها وترجع لنا تاني.. ترجع يونس اللي أنا أعرفه.

حاول يونس أن يرد عليها لكنه لم يجد ما يقال..

بعد رحيل والده بفترة طويلة أدرك يونس أنه لا يستطيع تجاوز ما حدث.. جرب الأصدقاء والانخراط في الدراسة والعمل.. حاول كثيرًا أن يزيل جو الكآبة الذي اقتحم البيت بعد أن كان البيت مصدرًا للبهجة.. فشل في كل محاولاته الطويلة والمكررة.. لم يكن ينقصهم المال ولا الونس.. كان ينقصهم الأمان.. انفرط حبل الأمان مع رحيل الأب.. وراحت أمه في نوبات اكتئاب مطولة.. لم يستسلم يونس في البداية.. حاول احتواء والدته وأخته.. لكن في نهاية الأمر كانت المحاولات تبوء إلى الصمت.. وإلى الخوف.. الخوف اللانهائي من المجهول ومن انعدام الأمان.

مع الوقت تطور الأمر إلى خلافات بسيطة في البداية ثم مشاجرات واتهامات من الأطراف جميعها.. تارة يتهمهم يونس بالكئابة والعزلة وتارة تتهمه والدته بالأنانية والجفاء.. كان يخفي حزنه على

رحيل والده طوال الوقت.. وكانت والدته تشعر بالذنب طوال الوقت لأنها هي التي دفعته للعمل في تلك الوظيفة التي أودت بحياته بعد عودته من السفر.

وكانت «مها» حائرة بين الطرفين تحاول حينا لم الشتات.. وحينا آخر تحاول أن تقوم بدور الأب الذي رحل.. ذلك الدور الذي شعر يونس مع الوقت أنه فشل فيه.. فقرر الرحيل تاركًا وراءه الخوف والحزن وإحساس اللاأمان القاسي.. فشلت جميع محاولاتهم باستبقائه في النهاية.. ورحل يونس في يأس.

قاطعت «مها» شرود يونس سائلة:

- فين يونس بتاع زمان؟ يونس اللي كان سقف البيت اللي ساترنا.. يونس اللي كان ميقدرش يبات في بيت مفيهوش ماما الله يرحمها.. يونس أخويا.. توأم روحي اللي كان لما صدره يضيق بسر يشيله معايا وهو مطمن.. يونس ابني اللي ربيته واتربيت معاه.. مش يونس اللي الدنيا خدته مني وبقى كل يوم في بلد بيجري ورا روحه لحد ما يلاقيها.. وبعدين يا يونس القُعاد مبيتطلبش.. يعني مينفعش تبقى موجود وسطينا غصب عنك

رد يونس في خفوت شديد:

- نفسي ألاقيه يا مها.. صدقيني نفسي ألاقيه.

- فاكر تيتا كانت بتقولك إيه؟!.. كانت بتقول عليك «طير «يا يونس.. مش بس عشان كل يوم في مكان شكل من وانت صغير.. لكن عشان قلبك لين.. دمعتك عزيزة بس في نفس الوقت قريبة.. بابا لما سابنا كنا لسه صغيرين.. لكن كنت انت أماننا في الدنيا.. قبل وفاة بابا في أيام تعبه كنت بسمعه بيتوجع من الألم.. قرح الفراش كانت بتقطع كل يوم حته من جسمه قدامنا ومحدش كان قادر يعمله حاجة.. مره روحت قولت لماما وانا بعيط.. قلتلها أنا نفسي بابا يموت عشان يرتاح.. حضنتني وقعدت تعيط هي كمان وقالتلي حتى أبوكي وهو راقد كده حامينا وشايل عننا كتير.. وقالتلي طول ما أبوكي عايش الناس بتهابك وبتعملك حساب.. لو جراله حاجة هتحسي إنك بطولك في الدنيا.. زمان لما كانت تحصل أي مشكلة.. كنت ببقى متأكده إنها هتتحل بتليفون من بابا.. كنت ببقى عارفة إن عندي اللي ياخدلي حقي واللي يقف في ضهري ويفتخر بيا..

كان يونس مدركًا تمامًا لما تقوله مها.. نفس الشعور الذي أصابه فور رحيل والده.. شعور الخوف من المجهول.. في أول مرة خرج فيها إلى الشارع بعد رحيل والده شعر بأن الجميع يتربص به.. شعر أن هناك مئات العيون تتربص له كي تؤذيه بشتى الطرق.. لم يتحمل الخروج لأيام وظل مختبئًا في البيت متحاشيًا الشارع والناس..

تابعت مها وكأنها تسمع ما يدور في باله:

- فاكر بنات عمك مصطفى لما اتريقوا عليا عشان بلبس نضارة.. فاكر بابا عمل إيه؟!.. اتصل بعمك مصطفى وقاله «اتصرف مع بناتك أو قول لي وأنا أربيهم».. تاني يوم عمك مصطفي جاب بناته وجه قاله حقك عليا.. خلاهم يبوسوا راسي وقالهم «مها دي فوق راسكم».. الله يرحمك يا بابا مبيعديش يوم من غير ما افتكره.. أنا طموحي كله كان بسبب بابا.. كنت بنجح عشان أهديله النجاح ده حتي وهو غايب.. كنت بشوف طيفه قاعد قصادي في كل حفلة تكريم بحضرها وبسمع تسقيفته وابتسامته الهادية اللي بتزرع ورد الدنيا كله جوا روحى.. زي اللي عماله تحوش في نجاحات عشان لما نتقابل تاني أقوله شوف يا بابا بنتك بقت إيه!.. بابا وحشني أوي يا يونس.. زمانه متونس بحس ماما دلوقتي.. ربنا يجمعنا بيهم بعد عمر طويل.. أنا آسفه إني مقولتلكش على مرضي.. بس صدقني دي حاجة انت مش هتفهمها.. أنا طول عمري اتعودت أشيل.. صعب أتقبل فكرة إني أبقى عبء على حد.. حتى لو انت اللي هتشيلني.. انت عارف أنا عشت طول عمري بحاول أكون ضيفة خفيفة عند كل الناس.. شكرًا يا يونس

انتبه يونس وسأل متعجبًا:

- شكرًا على إيه؟!

- شكرًا عشان طول عمرك بتعرف تسمعني للآخر من غير ما تقاطعني بحلول لمشاكل أنا عارفاها بس مش عارفه أعملها.. شكرًا عشان فاهم إني عايزاك تسمعني وبس..

- عارفة يا مها.. أنا مش عارف أفرح إني رجعت ولا أزعل على الحاجات اللي ضاعت مني في الغياب.. على قد ما موت ماما واجعني.. على قد ما بالي مشغول بيكي دلوقتي وكل همي إزاي تقومي بالسلامة وتعدي من المحنة اللي انتي فيها.. فاكره "علي" اللي كان بيلعب معانا واحنا صغيرين؟!..

ردت مها متذكرة:

- ياه.. قصدك علي اللي مامته كانت زميلة ماما في الجامعة وكانوا بييجوا يزورونا من وقت للتاني..

- أيوه هو ده.. فاكره ماما قد إيه كانت زعلانة لما مامته اتوفت بسبب السرطان.. وازاي هو بعد وفاتها كان طول الوقت غضبان وعصبي.. وقتها إحنا مكناش عارفين يعني إيه سرطان بس كنا عارفين يعني إيه موت ويعني إيه حد بنحبه يختفي فجأه وتبقى دي آخر مره هنشوفه ونسمع صوته فيها.. بس طول الوقت كنا فاكرين إن الموت بعيد عن حبايبنا.. كنا فاكرين إن الحاجات دي بتحصل للناس مش لينا.. أنا كنت فاكر إن الموت هييجي عند ماما وبابا ويخاف.

ابتسمت مها في مرارة:

- طول عمرك شاعر والدنيا بالنسبالك لون واحد بس

رد يونس:

- أنا عرفت الموت واحدة واحدة.. أول مره لما سلطان مات.. فاكراه ده كمان

قالت مها وقد ابتسمت من قلبها هذه المرة:

- يااااه.. أيوة الكلب اللي كنا مسميينه الشاويش سلطان.. علشان قاعد على طول على ناصية الشارع زي ما يكون بيحرسه..

- كنت متعلق بيه قوي.. وكان بيحبني عشان بحطله الأكل قدام البوابة وبلعب معاه.. زعلت أوي عليه عشان مات بسببي.. لما كنت يوم باصطاد مع بابا ومشي ورانا لحد العربيه فأنا قولت لبابا خلييه يجي معانا وسبحان الله بابا وافق مع إنه مش بيحب الكلاب..

سألت مها:

- تصدق مش فاكره مات إزاي.. أنا فاكره إنه فجأة اختفى وما بقاش موجود.. هو إيه اللي حصل يومها؟

رد يونس:

- واحنا مش واخدين بالنا يوم الصيد ده.. في تعبان دخل العياشة اللي فيها السمك.. وانا بفتحها لقيته اتخضيت وصرخت ورميتها علطول.. التعبان خرج منها وكان بيقرب مني.. سلطان جري عليه في ثانية وفضل ماسكة بين سنانه لحد ما قتله..فرحت أوي ساعتها.. بس للأسف كان التعبان لدغه وهو بين سنانه.. بعدها بالليل فضل طول الليل نفسه غريب وعمال ينهج ويترعش.. ومات قبل الفجر قدام عيني أنا وبابا.. واحنا مش قادرين نعمله حاجة.

عاد الحزن والوجوم ليحتل وجه «مها» من جديد.. وأكمل يونس كلامه عن الموت:

- تاني مره عرفت الموت كان يوم وفاة بابا نفسه.. لما رجعت من المدرسة لقيت عمي كامل بيحضني وانا مش فاهم فيه إيه.. دخلت لقيت صويت وعياط.. ماما بس كانت بتزعق فيهم وتقول محدش يصوت.. كنت بدور على بابا عشان يقولي فيه إيه.. دخلت لقيت ماما نايمه على صدره وماسكه إيده وبتقولي سلم على بابا يا يونس.. بابا خلاص هيسيبنا ويمشي.. مسكت ف كف إيده لقيته بارد.. كنت عايزه يصحى.. يصحى ياخدني في إيده.. أو ياخدني معاه وهو ماشي..

- كان وداع قاسي أوي علينا.

- أنا وقتها كنت مش فاهم.. ما كنتش صغير بس كنت بردو مش فاهم اللي بيحصل.. مش عارف يعني إيه موت.. واحنا في العربية اللي واخداه على المقابر ركبت معاهم جوا.. وفتحت مصحف الجيب بتاع بابا لقيت آخر صفحة عليها الشريط الأخضر اللي معلم الآيات.. هي سورة الفجر وأول آيه شوفتها كانت □ٿ ٺ ٿ ٹ ٺ ٽ ٽ ڤ ڤ ڦ ڤ ڦ ڤ ڦ ڦ □ وقتها إطمنت على بابا وعرفت إنه في مكان أحسن وإنه ارتاح من أيام تعبه أخيرًا.

قالت مها وقد بدأت دموع تهرب من عينيها:

- كفايه بقى يا يونس سيب ماما وبابا في حالهم.. أنا قلبي مبقاش متحمل..

ثم حاولت أن تغير مجرى الكلام الحزين عن الموت:

- هو الدكتور قال نقدر نمشي إمتى؟!

رد يونس شاردًا:

- قال النهاردة بس لازم تاخدي بالك من صحتك وتبدئي علاج.. أرجوكي كفاية اللي خسرته أنا مش حمل خساير تانية.. أنا موجود أهو.. عندك سبب تحبي الحياه عشانه..

ثم ابتسم يونس في حنان مكملًا:

- هتلاقي أخ زيي في الدنيا دي فين.. ياريت نرجع البيت بقى حاسس إن البيت واحشني.. حاسس إني بقالي كتير أوي غايب.

- انت فعلًا بقالك كتير أوي غايب.. دول ٧ سنين بحالهم.. فاكر يا يونس العادة إياها وانت بتقطع تذاكر القطر أو تحجز تذاكر الطيران.. كنت بتحجز تذاكر الذهاب بس.. وكنت تقول أنا مش ضامن هرجع إمتى.. دايمًا رجوعك ملوش معاد حتى عندك انت.. وطول عمرك بترجع.. بس بترجع متأخر! أتمنى المرادي تكون جيت قبل الوقت ما يسرقنا

* * *

- ٣ -

(حياة النسور)

«يرويه يونس»

«مضت أيام وأنا بجانب مها.. أحاول تعويضها عن غيابي طيلة هذه السنوات الماضية.. أرعاها كما لو كانت طفلتي.. أدللها كما لو كانت حب حياتي.. لو لم أفعل ذلك لسيطر علي شعوري بالذنب حتى قتلني.

ها أنا ذا أقوم بضبط المنبه على مواعيد الأدوية.. أذهب لشراء طلبات البيت.. أبحث عن وظيفة جديدة أستطيع من خلالها العمل من المنزل.. بأي راتب كانت.. المهم ألا تغيب مها عن ناظري لحظة واحدة.. الآن أحصد سنين تعلقي وشغفي بتصميمات الفوتوشوب..

منذ المدرسة الثانوية وكان شغفي شيئان لا ثالث لهما.. الشعر وتصميم الجرافيك.. وكنت أشعر في أوقات كثيرة أن كلًا منهما يكمل الآخر.

أضعت مئات من الساعات من وقتي في أثناء الدراسة في تعلم أسرار وفنون الـ «فوتوشوب» وجوارها مئات الساعات أيضًا في القراءة والكتابة.. كانت والدتي رحمها الله تسألني دومًا عما يمكن أن أجنيه من هذا أو ذاك.. لم تكن لدي أي إجابة.. لكن أبي كان دائمًا ما يطلب منها أن تتركني وراحتي فيم أحب.

لأم أعلم أنه سيأتي اليوم الذي أقدم فيه على وظيفة مصمم جرافيك وأجتاز المقابلة الشخصية بتلك البساطة.. كانت أسئلة المقابلة بالنسبة لي ساذجة وبسيطة. وكانت معظمها تدور حول بديهيات في عالم تصميم الجرافيك. واكتشفت بعد مضي أسبوعين فقط في العمل أنني كنت مصمم هاوي لكن بدرجة محترف نسبة إلى زملائي في نفس الشركة.

تعاقدت معي إحدى شركات الميديا المسئولة عن تصميم تيترات الأفلام.. لم يكن راتبًا كبيرًا على الإطلاق.. لكنه أيضًا لم يكن بالراتب البسيط.. وقد نجحت مها في أن تمنعني من بيع الكارافان.. فقد كان ثمنه كافيًا لحصولها على أفضل رعاية طبية ممكنة.. كيف لها ألا تكون أنانية ولو لمرة واحدة.. كيف لها ألا تختار نفسها أبدًا.. وأن تجعل احتياجات الجميع دومًا قبلها بهذه البساطة.

في ظرف شهرين كان كل شيء تبدل.. صرت أقضي معظم الأوقات بعد العمل مع مها.. وكأنني أحاول تعويضنا ما فاتنا من ونس قديم.. عدنا لمشاهدة المسلسلات القديمة والمسرحيات التي كنا نحبها ونحن صغار.. عادت لي مها سريعًا وبدأت صحتها تتعافى ببطء وغزا وجهها بشاشة وسعادة بسيطة. وبدأت كوابيسي الليلية تختفي تدرجيًّا كما بدأت نوبات الاكتئاب التي كانت تصيبني تخفت في تدريج.

كانت أيام الثلاثاء هي الأثقل بالنسبة لي.. كان موعد جلسات العلاج النفسي الخاص بمرضى الأورام. وكنت قد اعتدت أن أسخر من الأمر قائلًا لمها كل مرة:

- يالا بينا يا مها معاد جلسات الدراما.

كنت أذهب بصحبتها إلى جلسات إعادة التأهيل النفسي.. تلك الجلسات التي يتشارك من خلالها مرضى السرطان الحديث عن رحلتهم مع المرض.. كيف يواجهونه وكيف تأثر من حولهم بما حدث.. بعضهم مازال تحت العلاج.. بعضهم ما زال في بداية الرحلة القاسية.. والبعض الآخر قد تعافى أو كاد.. لكنه أصر أن يشارك من سبقهم خبرته مع هذا الداء اللعين.

وراء كل منهم قصة.. قصة تصلح لأن يحولها صناع السينما إلى فيلم يملأ قاعات العرض الأول بالنحيب.. ربما تحتاج أن تمنح فوق كل تذكرة علبة مناديل هدية.. لم أكن أسخر من الأمر بالطبع ولكن السرطان معاناه حقيقية.. حيث تكون في انتظار فقدان من تحب طول الوقت.. ولم أكن أفهم الداعي وراء جمع هذه الحكايات والمعاناة القاسية في نفس المكان..

أذكر تلك القصة الشهيرة التي حدثت للدكتور ماهر طبيب العائلة الذي جاء أطفال العائلة بالكامل على يديه.. كان لا ينجب أبدًا.. وقد كان المثال الحي على أن فاقد الشيء هو أفضل من يعطيه.. وربما أكثر من يستحقه.. كان الجميع يتغنى بقصة حب الدكتور ماهر وزوجته.. وكيف أنه كان يحبها لدرجة لا تصدق جعلت هذه القصة تأبى ألا تنتهى إلا بشكل درامي.

أصيبت زوجته بالسرطان فجأة.. تم إكتشاف الأمر في مرحلته الأخيرة.. ووقع نبأ مرضها على مسمع دكتور ماهر كالصاعقة.. من شدة خوفه أن يفقدها فقدته هي..

نام ذلك الطبيب المسكين ليلتها ولم يستيقظ مرة أخرى.. قتله الخوف من الفقد.. وبالطبع التحقت هي به بعد أشهر قليلة.. وتحولت تلك الڤيلا المضيئة التي كانا يسكناها إلى مكان مظلم موحش.. تشعر بانقباضة قلب دامية حين تمر بجوارها.. ما ألعن السرطان! وما أقسى الفقد.

قمت بالكثير من المحاولات كي أقنع مها بالعدول عن قرارها والامتثال لبروتوكولات العلاج.. فهي من مواليد برج الثور شديدة العناد.. وكأن حفر بئر بإبرة أسهل بكثير من إقناع مواليد هذا البرج بأبسط الأمور البديهية.

كنت أعرف أن مها عاطفية للغاية.. وأنها مثلي تمامًا.. قلبها هو نقطة ضعفها الوحيدة.. قلت لها أني أريدها.. لا أريد أن أفقدها.. وحتى إن كنت سأفقدها حتمًا فالأعمار كلها بيد الله.. فقط عليها أن تحاول وأن تتمسك بالأمل.. وأنه ليس عليها الإستسلام بهذه الطريقة وأنني لن أقف ساكنًا وأنا أفقدها بهذه السرعة.. لكن أكثر ما كنت أخشاه هو «خطورة الأمل».. أن أجعلها تحب الحياة مرة أخرى.. وتتعلق بي وأتعلق بها ويحدث ما أخشاه وينكسر قلبي..

كانت معادلة صعبة.. معادلة مرهقة تستلزم الكثير من الحكمة والصبر والإيمان.. لكني كنت أحاول أن أتغير في كل شيء.. في حياتي الشخصية وفي العمل وفي الالتزام تجاه مها.. آخر من بقى لي..وكنت أثق في الله حد اليقين.. ولن أبرح حتى أبلغ مرادي.. هكذا ولدت وهكذا سأموت.. أنا لا أنسحب أبدًا.. ربما هربت مرة. لكن لن أهرب هذه المرة.. وإنما أفضل الموت على ذلك..

أعلم أن أكثر ما كان يؤرق مها ويجعل بينها وبين العلاج حاجزًا نفسيًا أكبر من أن تتخطاه هو تأثير جلسات الكيماوي على الجسد وسقوط الشعر وكل هذه المعاناة المرهقة. لكنني ذكرتها بأمي.. فبعد وفاة والدنا تقدم لزواجها أحدهم مرات ومرات.. وكان رجلًا محترمًا وله ظروف مشابهة ويحتاج إلى الونس.. مثل أمي تمامًا. لكنها كانت ترفض الأمر بعنف وغلظة وتأبى أن يصبح في بيتنا رجل آخر..

وكانت محاولات جدي المستمرة في إقناعها أمر مرهق للغاية.. وكانت أمي بارعة في «تطفيش كل من حاول أن يتقرب منها».. كانت جميلة رغم ما أصابها من الحزن.

أذكر أنها في إحدى المرات قالت لأحدهم «أنا جبت أجل أبوهم في ١٥ سنة.. هجيب أجلك انت في شهرين».. وكان جدي يستعطف أمي كثيرًا قائلًا:

- يا بنتي أنا مش هعيشلك.. عايز أطمن عليكي.. هتروحي فين بالعيال.. أنا خايف تتبهدلي

فكانت ترد:

- ما بقوش عيال خلاص.. ده راجل ودي عروسة قد الدنيا.. اتطمن عليهم وأحصل أبوهم على طول.

لم يمل جدي ولم تستسلم أمي حتى نفذت حيلتها الأبرع حين أتى جدي لأمي بعريس لا يمكن رفضه.. وكان متمسكًا بأمي ويعلم كثيرًا أنها تريد أن ترفضه بأي طريقة.. وبالفعل إستيقظنا في صباح ذلك اليوم لنجد أمي قد أزالت شعرها بالكامل.. بالموس كما يقولون.. وقالت لجدي

- أنا أم العيال دي وأبوهم.. أنا مش هجيبلهم جوز أم.. على جثتي

حينها فقط اقتنع جدي أن أمي لن تتراجع عن قرارها أبدًا.. وانتهت محاولات تزويج أمنا برجل آخر.

قلت لمها أن هنالك تضحيات يجب على الإنسان أن يمر بها ومصاعب لابد أن تحدث لكي يتجاوزها وينجو منها ويخرج من بين أنيابها أشد وأقوى.. مثل ما يحدث للنسور.

لم تفهم مها قصدي فسألتني:

- وإيه اللي بيحصل للنسور يا يونس؟

قلت مفسرًا ما يحدث في دورة حياة النسور.. حيث يمكن أن يعيش النسر إلى ما يصل إلى ٧٠ عام.. ولكن للوصول إلى هذه المرحلة يجب على النسر اتخاذ قرار صعب شديد القسوة كل فترة، حيث أنه في الأربعينيات من عمره لا تتمكن مخالبه الطويلة والمرنة من الاستيلاء على الفريسة للغذاء.

فالمخالب تكون صلبة وحادة ومنحنية طوال حياته، حيث أنها من الكيراتين مثل أظافرنا، وإذا فكرت في المدة التي يستغرقها نمو أظافرك، ستجد أنه لا يمكن لأي نسر البقاء على قيد الحياة دون منقار أو مخالب لأي فترة من الوقت، كما أن أجنحته القديمة والثقيلة تتعثر في صدره بسبب ريشها الكثيف وتصعب عليه عملية الطيران، لذا يتم استبدال الريش طوال حياة النسر، وتسمى هذه العملية بمرحلة «التساقط «ولا يفقد النسرالريش كله في وقت واحد، وإنما هي عملية تحدث بشكل تدريجي، حيث يتم تجديد الريش باستمرار.

لكن المشكلة الحقيقية تكمن في منقاره الواهن.

لا يتبقى للنسر سوى خياران: إما أن يموت أو يمر بعملية تغيير مؤلمة تستمر حوالي ١٥٠ يوم، والتي تتطلب أن يطير النسر إلى قمة الجبل ويجلس على عشه، ويستخدم عش النسر لتربية الصغار فقط، ولا يستخدمه النسور إلا في الأشهر القليلة من السنة التي يقومون فيها بهذا النشاط.. وهناك يقوم النسر بضرب منقاره في الصخر إلى أن يخرجه، وكذلك مخالبه، وعندما تنمو مخالبه الجديدة يبدأ النسر في نتف الريش المسن، وبعد خمسة أشهر، يخوض رحلته المشهورة باسم الولادة الجديدة حيث يمكنه ذلك من أن يعيش لمدة ٣٠ عام أخرى.

كذلك نحن البشر.. قد يحدث لنا ما يشبه التجديد كل فترة.. وليس أكبر وأقسى من مثال مثل ما يحدث لمريض السرطان.

يقول البعض أن السرطان تجارة وأنه من صنع شركات الأدوية بموافقة من الحكومات.. حيث يصدقون كون السرطان مجرد نقص في فيتامين ب ١٧ تمامًا كمرض الإسقربوط الذى انتشر في العصور القديمة.. وأصبح كابوسًا حقيقيًا يهدد حياة ملايين البحارة والمستكشفين.

حيث يعتقد البعض أن السرطان يعني مزيد من الإعلانات ومزيد من التبرعات ومزيد من التعاطف.. لكنني لست ممن يصدقون ذلك بالطبع.. فلا أعتقد أن ثمة أحد في هذا العالم قد يتاجر بآلام الآخرين لهذه الدرجة.

* * *

كنت أذهب مع مها في نهار الثلاثاء من كل أسبوع.. حيثما تبدأ الحكايات التي يختالها الضحك تارة والدموع تارة أخرى.. يوجد جزء هام جدًا في مقاومة الإنسان لأي مما يمر به.. وهو شعوره أنه ليس بمفرده.. وأن ما حدث له حدث لغيره.. وأن هنالك من أستطاع العبور من ذلك النفق المظلم البارد.. هو أمل حقيقي نحو التمسك بالشفاء.. والتعلق بأسباب الحياة..

سمعت هنالك لأول مرة مصطلح (fighter) بمعناه الحقيقي والعملي.. هم يستخدمون كلمة مقاتل بدلًا من مريض.. وأرى أن ذلك أفضل جدًّا في الحقيقة.. بل ويشكل فرق كبير في المعنويات.. شعرت وأنا معهم بقيمة كل نعمة مهما كانت بسيطة.. فهمت حقًّا تلك الجملة التي اعتدت أن أكتبها عشرات المرات في كراسة الخط العربي «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى».. كيف أن كل منهم يقاتل من أجل الحصول على «يوم كمان».. كيف يصبرون أنفسهم وينتظرون الغد الأفضل بكل واقعية بعيدًا عن كليشيهات التنمية البشرية..

ولكن الحقيقة أنني لم أكن أفضل إلى أن ظهرت «سعاد «

سعاد حسني.. هكذا قالت إسمها للمرة الأولى.. تكاد تشعر أن لصوتها «روح».. يطل الدفئ من عينيها الواسعتين.. الحالكتين.. الطيبتين جدًا حتى تشعر أنك لا تريدها أن تكف عن الكلام مطلقًا.. تود لو أن تجلس وتستمع إليها للأبد.. تشعر أنها طفلة لا تنفك عن مطاردة الفراشات أبدًا.. تشعر أنها لم تحزن لبرهة واحدة.. لم يعرف الألم طريقًا إليها، أنها بسيطة لكن لا مثيل لها.. فاتنة على أي حال.. تستغرب وجودها في زمان كهذا.. وكأنها نزلت من السماء نزولًا.. ربما غارت منها الملائكة فأرسلوها إلينا.. تشعرك أنها هاربة من حكاية بيضاء الثلج والأقزام أو أنها سندريلا قلبًا وقالبًا.

قابلتها أول مرة على مدخل المبنى الموجود به العيادة النفسية التي ترتادها «مها».. كنت أدخل من باب المبنى وكدت أن أصطدم بها وهي خارجة تعدو من الباب.. وكانت تقول بصوت عال وهي تتحدث في الموبايل:

- الموبايل هيفصل ثواني.. والشبكة كمان بتقطع.. ألو.. ألو...

وكان أول ما أسرني منها هو ابتسامتها الواسعة التي ارتسمت على وجهها عندما وجدت هاتفها قد ماتت بطاريته تمامًا.. توقفت في بهو المبنى وقالت لنفسها دون أن تدرك وجودي:

- يالا أحسن.. عشان ما تبقاش تصدعني كل شوية

لم أدر كيف سألتها دون وعي وكأنني مسير من شخص خفي:

- تحبي تستخدمي موبايلي؟

نظرت إلى في دهشة وكأنها تراني بالفعل أول مرة وردت وهي ما زالت تبتسم:

- استخدمه إيه أنا ما صدقت.. دلوقتي عندي حجة اتأخر شوية

ثم اتسعت ابتسامتها تمامًا. وطارت كالفراشة خارجة إلى الشارع الواسع

لم أدري كيف تكلمت بهذه البساطة والرقة والمباشرة مع شخص لم تره من قبل ولا تعرفه ولا تعرف نواياه.. وكان ما دار في رأسي وقتها أني لو كنت شخصًا سيء فأنا على استعداد تام لأن أعلن توبتي أمام هذا الملاك الذي يتكلم وهو يبتسم.

عندما التقينا بعدها وجدتها حالمة وطموحة ومدهشة.. فريدة كأن الله لم يخلق سواها.. يكاد وجهها يضيء ولو لم يمسسه نور.. معجزة من معجزات الله في مكان كله آلام وقسوة وتجارب حزينة تمشي على قدمين.

وعندما عدت إلى المنزل في ذلك اليوم كان السؤال الذي دار في رأسي طوال الليل هو مال الذي حدث لي وقت أن رأيتها.

فقد مضيت العديد والعديد من الأعوام منذ دخولي الجامعة أتعرف على كل الناس.

تعرفت على الكثير جدًّا من الأصدقاء.. ولم أعرف أبدًا ما الذي كان يمنعني من الاستمرار في أي علاقة جادة.

لم أشعر أبدًا أني أريد الاستمرار أكثر من أسابيع قليلة مع أي واحدة تعرفت عليها تحت أي مسمى أو أي فرصة.. صديقات الجامعة.. زميلات العمل.. محادثات السوشيال ميديا.. أقرباء.

كل من قابلت كان ينتهي شغفه تجاهه في غضون أيام قليلة.. إلا أن ما حدث لي عندما رأيت سعاد لم أعرف له تفسيرًا سوى كلمة النصيب.

رأيتها فما رأيت سواها.. وجدت نفسي أقطع وعدًا بأن أحبها للأبد قبل حتى أن أعرف من هي وما الذي كانت تفعله في العيادة.

عندما عدت وجدت نفسي أتخيلها في منزل بسيط دافئ تفوح من رائحة الحب.. بيت صنع من العشق الخالص الهادئ البسيط والمريح.. تمامًا مثل ابتسامتها..

أصبحت فجأة هي الأمل الذى أعاد إلي وردَّ روحي وعلقني بالحياة مرة أخرى.. وعندما التقينا في الأسبوع التالي على سلم العيادة وكانت مها جواري لمحت لمها عنها.. ظننت أنها قريبة لأحد المترددين على العيادة إلا أن مها قالت لي بحزن:

- دي سعاد.. اسمها سعاد حسني.. محاربة جديدة معانا في الجروب

* * *

- ٤ -

(زيارة من صديق قديم)

يقول يونس:

لم تكن أختي فحسب.. بل كانت بمثابة أمي أيضًا.. قد لا يكون فارق السن كبيرًا لهذة الدرجة ولكنها كانت كتلة من العطاء.. أقسم أنها لن تمانع إعطائي عينيها بالمعنى الحرفي للكلمة.. لم أشاهد أحدًا لديه هذه القدرة الهائلة على «جبر خواطر» الناس.. القريب والغريب.. من تعرفه منذ سنين ومن قابلته توًا.. لا أحد يقابل مها إلا ويتعجب من طيبتها ويندهش أنها تفعل ذلك دون أن تدري عظمة ما تفعله.. فمنذ أن كنا أطفالًا.. كانت مها ودودة مع الجميع.. وكانت على أتم الاستعداد أن تعطى مصروفها بالكامل لسائل طلب منها حسنة.. حتى أنها لا تتقاسمه ولن يخطر الأمر ببالها أصلًا.. قس على ذلك كل شيء في حياتها.. لك أن تتخيل أنها من الممكن أن تتسبب في أزمة مرورية وتترك سيارتها في منتصف الشارع وتنزل في سبيل إطعام قطط الشوارع.. يالها من إنسانة.. وياله من قلب ينبض بين أضلعها.

كانت جدتي دائمًا ما تقول «مها مطيباتيه» بس حظها قليل.. أو بالأحري «طيبتها مميلة بختها»..

كانت تعلل ذلك بقولها أن الرجال لا تهتم لأمر المرأة الطيبة.. وأن الرجل بطبيعته قد يقضى عمره يركض خلف طيف إمرأة لمجرد أنها قالت له «لا».. فلا شيء يجرح كبرياء الرجل سوى الإحساس بالرفض.. حيث يتحول الأمر من حب إلي مسألة شخصية.. وقد يكون ذلك الرفض دافعًا لنجاحه فيما بعد.. فقد كانت جدتي تؤمن بأن وراء كل عظيم إمرأة ولكن إمرأة تركته!

وبقدر ما كانت مها طيبه تلين الأرض من تحت قدميها.. فقد كانت تعامل «شريف «بكل حدة.. رغم أنها بالنسبة إليه كانت حب حياته.. بل كل حياته.. وكنا جميعا نعرف ذلك.

كان هو في حياتها مجرد «إبن خالتها».. لا أعرف لماذا تصر مها دائمًا على الوحدة.. لماذا لا تحلم أبدًا بتكوين أسرة.. أن تحب وتُحب.. خاصة مع رجل مثل شريف ابن خالتنا.. طموح وناجح ومخلص وطيب القلب..

ربما أنها لا تتخيل نفسها أبدًا بالفستان الأبيض.. ولو تخيلت ذلك لأصيبت بالارتباك والخوف من هول المسؤولية.

فهي لا تعترف بالحب من ذلك النوع، تؤمن بالعطاء والمنح دون مقابل عن طيب خاطر،، لكنها تهاب الحب والارتباط وتخشاه تمامًا.

لم تعط نفسها الفرصة أبدًا لتجرب.. ولم تعط شريف الفرصة أبدًا ليقترب.. وكلما كانت تبادر أمي بقولها:

«نفسي أفرح بيكي.. نفسى أشوف ولادك»

كانت ترد مها بحدة:

«ماما أنا مابفكرش في الموضوع ده.. أنا شغلي أهم حاجة في حياتي بعدك انتي ويونس أخويا»..

ربما أنه من حقها أن ترفض الزواج كمشروع.. لكن كيف لها أن ترفض الحب أيضًا.. كيف لها أن تتجنب السقوط في فخ الإعجاب بأحدهم ولو لمرة واحدة.. كيف عاشت حياتها كراهبة مثل أمي..

كيف للمرأة أن تقضي حياتها بالكامل دون رجل؟ في حين أن الرجل يعجز عن إتمام عام واحد دون إمرأة في حياته؟.. حتى يعتاد علي صوتها في المنزل.. دفئها في الفراش.. رائحتها في المكان.. على جملة صباح الخير منها.. على رسائلها في منتصف يومٍ طويل من العمل الشاق..

الرجل لا يستطيع أبدًا أن يكمل حياته من دون دعوة «ربنا يستر طريقك «وهو على سفر.. و«حمد الله علي السلامة» حين يعود.. لا يستطيع العيش من دون تلك الأسئلة «هل أكلت؟!.. هل أنت بخير؟!.. كيف كان يومك؟!» كيف للرجل أن يستمر من دون «ربنا يحبب فيك خلقه» و«ربنا يوقفلك ولاد الحلال».. نعمة البيت الدافئ واللقمة الهانئة.. كل هذا هو المرأة.. هو من صنيعها وبهجتها وسحرها الذي يجعل لكل شيء معنى

علي الصعيد الآخر قد تجد إمرأة عاشت عمرها كله بلا رجل.. وتقوم بالدورين علي أكمل وجه.. يا إلهى كيف لهن أن يفعلن ذلك..

أضاع شريف حياته من أجل مها.. فقد رفضت الزواج منه ولم يتزوج هو الآخر.. سافر إلي لندن ليكمل دراسته.. إلتحق بالجامعة وأكمل دراسته بالخارج.. تخصص في جراحات القلب وحصل على الماچيستير والدكتوراة والزمالة أيضًا.. حتى صار أحد أكفأ أطباء جيله.... أنقذ حياة الآلاف من المرضى دون أن يتجاوز الأربعين من عمره.. كل ذلك لم يحرك ساكنًا بقلب مها التي كانت ترى في حب شريف عبئًا ثقيلًا عليها.. هدية غير مقبولة.. مهما كانت ثمينة فهي تظل بلا ثمن.

في صباح أحد الأيام.. استيقظت على صوت مها وهي تخبرني أن شريف في الصالون.. وأنه حضر من لندن للزيارة ولتقديم واجب العزاء الذي تأخر لشهور

كنت شاردًا في آخر مرة قابلت فيها سعاد في العيادة بعد أن حضرت جزءًا من الجلسة معهم.. وكان صوت سعاد مازال يتردد في أذني ليؤنسني ويشعرني بمزيد من مشاعر الدفء والأمان. كنت أشعر بطاقة حب كبيرة لم أعرفها من قبل.. وأفكر في شكلها وصوتها طوال اليوم.

قمت لأرحب بشريف وكانت نظرات مها التحذيرية لي مفهومة تمامًا.. كلانا كان يعلم أن موضوع العزاء هذا مجرد سبب شكلي لعودته.. وأنه عاد من أجل مها.. ربما علم بأمر مرضها من نادية أخته فالأمر لم يعد سرًا وعندما أوجع الخبر قلبه عاد على الفور.

كنت أعلم أن الحب من طرف واحد خطير جدًا.. وذلك إن جازت تسميته حبًا أصلًا.. لكنه مرض لا أجرٌ فيه.. جرح لا يشفى أبدًا وألم يتجدد طيلة الوقت.. أستغرب كيف لم ييأس بعد كل هذه المحاولات التي باءت بالفشل.. كيف له أن يعود محملًا بنفس القدر من الحب بعد كل ما حدث! أي إنسان غيره كان ليكرهها ولكن نبل شريف كان علي قدر طيبة مها.

دخلت لأجد شريف كما هو.. عيناه تفضحاه ويكاد ينطق في نهاية كل جملة بكلمة «أحبك».. فتأكد لي ظني وعرفت أنه آت من أجلها كما يفعل في كل مرة.. أشفقت عليه بصراحة.. وكنت صريحًا مع نفسي ومع كلاهما وقلت لهما..

- شريف انا عارف إنك جاي عشان مها زي كل مرة.. وعارف إنك عندك كلام كتير عايز تقوله ليها.. أنا هسيبكوا تتكلموا مع بعض.

ردت مها لتقاطعني وتستوقفني كي لا أرحل:

- بس أنا معنديش كلام أقوله يا يونس

فأجبتها:

- بس في كلام لازم تسمعيه يا مها.

لاحقها شريف قائلًا:

- مها أنا عارف إني كل مره باجي وبمشي من غير ما آخد حتى ريق حلو.. ومش لاقي مبرر لرفضك ليا طول السنين دي كلها.. بس أنا متأكد إنك مش رفضاني أنا.. إنتي رافضة الفكرة نفسها.. بالعكس إنتي بقى عندك سبب أقوى إنك ترفضي وجودي اللي هو تعبك.. طول عمرك شايلة الكل.. ومش هتقبلي إنك تبقى عبء على حد.. أو حتى تحسى إنك عبء حتى.. بس أنا بحبك.. محبتش غيرك ولا حبيت قدك.. عمري ما فقدت الأمل إنك تبقي ليا حتى لو عدى كل العمر ده مش هفقد الأمل برضو.. كل خطوة كنت باخدها وكل نجاح كنت بحققه كنت ببقى عايز أهديهولك انتي.. كنت ببقى راجع بعد أي يوم شغل طويل عايز ألاقيكي في البيت.. عايز أحكيلك تفاصيل يومي.. عايز أشوف ملامحك وسط الناس اللي بتسقفلي وتفرح بيا.. أنا عشت حياتي كلها عشانك حتى وأنا مش معاكي.. أرجوكي أنا مش عايز أكتر من فرصة.. فرصة نكون فيها أنا وانتي مع بعض.. فرصة أعوضك عن كل يوم صعب عشتيه في حياتك.

- وبعدين يا شريف؟!.. وبعد ما ده يحصل؟ أموت وأسيبك؟!.. أكسر قلبك تاني؟!.. أكسر قلبك وأنا عايشة وأكسره وأنا ميته كمان؟!

- أنا راضي.. إن شالله أموت على إيدك أنا راضي.. أنا مش عايز غيرك.. لو هعيش يوم واحد معاكي أنا مش عايز غيرك.. إديني الفرصة اللي عشت بحلم بيها طول عمري.. بلاش العند ياخدنا من بعض تاني.. صدقيني انتي أملي في الحياة.. بموافقتك دي إنتي هتنقذى حياتي وتبدأى حياتك.

- تعرف إنك كنت في بالي امبارح؟!.. كنت بقول لنفسي إزاي ظلمتي شريف طول السنين دي كلها.. كنت بفكر إزاي أنا كنت بعاملك وحش وبهرب من حبك ليا كأنك عدوي.. لو مكنتش جيت كنت هتصل بيك أقولك أنا آسفة.. آسفة على كل مرة صديتك فيها أو مقدرتش حبك ليا ومشوفتكش بالعين اللي تحبك وتقدرك صح.. حقك عليا يا شريف.. بس لو فعلا لسه مصمم إننا نبقى مع بعض أنا هبقى محتاجة أفكر في القرار ده.. وأرجوك متضغطش عليا لحد ما آخد قراري.

لم يصدق شريف ما سمعه وقال فرحًا كطفل:

- أنا حاسس إني هطير من الفرحة.. رجليا مش شايلاني.. حاسس إن ربنا استجاب أخيرًا لدعواتي.. ده عوض ربنا عن كل يوم عشته من غيرك.. متأكد إنك هتوافقى.. متأكد إننا هنبقى لبعض أخيرًا.. شكرًا على كل حاجة يا مها.

ثم قام شريف من مكانه وودعني في حرارة وهو يقول:

" أخيرًا يارب.. الحمد لله "

وانصرف في فرح شديد.. اقتربت من مها وقلت لها بهدوء:

- خدي وقتك يا مها في التفكير.. بس نفسي تجمدي وتستفتي قلبك في نفس الوقت.. إنتي تستاهلي السعادة يا مها وتستاهلي الحب.

ثم تركتها وعدت إلى غرفتي أفكر في سعاد من جديد

* * *

صرت أنتظر يوم الثلاثاء بفارغ الصبر.. أتمنى لو أن أيامي كلها هي يوم الثلاثاء.. أستيقظ قبل الموعد المحدد بساعتين.. أفرغ في رأسي فنجانًا من القهوة.. وأفرغ في قلبي تلك الأغنية الصباحية المعتادة التي لحنها بليغ حمدي لأحمد عدوية والتي لم تلق حظها من الشهرة.. حيث إقتصر غناؤها على الجلسات الخاصة وبعض الحفلات.. تلك الأغنية التي أشعر أنها صُنعت من أجلي.. وكأني الشاعر عبد الوهاب محمد قد اطلع على قلبي.. فرسمه بكلماته وألقى بليغ حمدي أحد تعاويذه على

روحي فحولني لحنًا.. تلك الأغنية التي أرفض أن أشاركها أحد.. كأنها كنزي وسري الذي لم أخبر به أحدًا..

تقول كلمات الأغنية:

دقيت على الأبواب قالوا كفاية

ده مفيش حد

وناديت على الأحباب قالوا كفاية

ومين هيرد

ده القمر مسافر والسهر مسافر

والفرحة مسافرة حتى الحزن سافر

كل الناس مسافرة وهى قريبة منى

كل الناس في غربة ومين هيسأل عنى

ربما أن حبي لتلك الأغنية ينبع من أنني اعتدت أن أكون مسافرًا طول الوقت.. مسافرًا حتى في خيالي، ولا أعود أبدًا.. ولا أكف عن الرحيل ولا الوداع.

كنت دائمًا ما أشعر أن الموت يطاردني ليس سعيًا خلفي.. ولكن خلف أحبتي.. لا يكف عن ممارسة الروليت الروسي.. لعبة الحظ القاتلة.. تلك اللعبة القاسية حيث يقوم الشخص الذي يود اللعب بوضع رصاصة واحدة في المسدس ذو الساقية الدوارة، ثم يقوم بتدوير ساقية المسدس التي يمكن أن تحمل ست رصاصات عدة مرات بحيث لا يعرف ما إذا كانت الرصاصة سيتم إطلاقها أم لا، ومن ثم يوجه المسدس نحو رأسه ويسحب الزناد. فإذا وضع رصاصة واحدة فإن احتمال موته هو ١ من ٦..

هكذا كنت أشعر طوال الوقت.

لا أعلم متى سيحين دوري لكن الموت لم يتوان عن خطف أحبتي أمام عيني.. واحدًا تلو الآخر.. أنا لا أخشى الموت.. وإنما أخشى الفقد.. يؤلمني الوداع الأبدي وتقتلني الحسرة على الفرص الضائعة.. تلك الأحضان التي لم ندخلها أو دخلناها ولم نطل البقاء فيها حتى الشبع.. وتلك الكلمات التي بخلنا بها.. أو تفوهنا بها مبتورة.. كنصف أحبك.. ونصف أريدك.. ونصف اشتقت إليك.

تلك المحادثات التي أنهيناها سريعًا.. كل كلمة «صباح الخير» لم تقابل برد كما ينبغى أن يكون.. وكل مكالمة فائتة وكل رسالة كتبناها ولم نرسلها.. وكل رسالة أرسالنها ولم نجد الرد الذي يرضينا.. كل الدقائق التي أضعناها في البعد بلا أي مبرر.. سواء بُعد المسافة أو البُعد النفسي.

يا إلهي.. كم انشغلنا بالحياة عن الحياة.

جاء يوم الثلاثاء أخيرًا.. وكان شوقي لرؤية سعاد هذه المرة قد بلغ منتهاه.. استيقظت بحماسة معتادة أسأل مها مشيرًا لأحد معاطفي الجلدية الأنيقة التي اقتنصتها من رحلتي الأخيرة إلى تركيا. قلت لمها:

- حلو ده؟!

أجابت باستغراب

- حلو ده.. بس من إمتى انت بقيت مهتم تاخد رأيي في لبسك؟!

- يعني بما إنك بنت وزي القمر كدة أكيد هتبقى عارفة إيه اللي هيعجب البنات.

- الله الله.. يونس أخويا بقى مهتم يلبس اللي يعجب البنات.. والله المفروض يكتبوا اللي بيحصل ده في "حدث في مثل هذا اليوم"

- إوعى يكون اللي في بالى صح يا يونس؟!

- اللي في بالك صح يا مها.

- سعاد؟!.. بس دي مش شبهك في أي حاجة.. هي حاجة وانت حاجة تانية خالص يا يونس.

- مهو ده المطلوب يا مها.. هحب واحده شبهي ليه.. أبقى أنا وهى بنحب نفس الحاجات وذوقنا واحد في المزيكا والأفلام ولو احنا الاثنين مبنحبش الخروج هنقضي حياتنا كلها في البيت ونخلف عيال شبهنا برضه ونعمل الجزء التاني من ملحمة البؤساء.

فكرت مها في كلامي قليلًا.. بدا أنها تود لو تقول شيء ما لكنها تراجعت فتابعت قائلًا لها بحماس:

- أنا مش محتاج واحدة شبهي أنا محتاج واحدة تعرفني على الحياة اللي معشتهاش.. أنا عشت بعمل كل حاجة لواحدي يا مها.. حتى متعتي في الحياة اللي هي السفر.. كنت بسافر لواحدي وبتفسح لواحدي وبعمل الحاجات اللي أنا بحبها بس.. لو عرفت حد بيبقى معرفة سفرية.. وبعدها ولا كأنه كان موجود.. لا كان ليا صحاب ولا عمري ركزت أصلًا في موضوع الحب ده.. ولا عمري حتي

تخيلت نفسي متجوز وأب وعندي عيال بوديهم وبجيبهم من المدرسة.. أنا حتى مشلتش أي فلوس على جنب.. أنا مكنتش متخيل إني هفضل عايش أصلًا لحد دلوقتي.

هنا تشجعت مها وسألتني:

- واشمعنى سعاد يا يونس.. إيه اللي مختلف فيها؟

رددت وكأني كنت أنتظر سؤالها بفارغ الصبر:

- مش عارف ليه لما شوفتها حسيت قد إيه أنا كنت مقصر في حق نفسي وحارم نفسي من السعادة الحقيقية ومن متعة التجريب.. أنا ما بصتش ورايا غير لما شوفت مستقبلي معاها.. معرفتش قد إيه أنا لوحدي.. غير لما شوفتها.. أنا بقيت بستنى كل يوم تلات عشان أسمعها وهي بتتكلم.

ابتسمت مها وقالت بلوم فيه ادعاء:

- كده يا يونس؟ وأنا اللي فاكراك بتيجي عشاني.

- يا مها افهميني.. أنا حبيتها.. حبيتها قبل ما أعرف عنها أي حاجة.. حبيتها كأني كنت بدور عليها طول عمري ونمت وصحيت لقيتها قدامي.. كإن الحب ده عامل زي النوم.. تبقى قاعد مشغول بحاجة ومش في بالك إنك هتنام خالص وفجأه بتغرق.. بتغرق من غير مقدمات.. تنام في العربية.. على سريرك.. على الكنبة اللي في الصالة.. كأنه رغبة كل ما تقاومها كل ما بتشدك.. زي الرمال المتحركة كدة

- مكنتش أعرف إنك غرقان للدرجة دي.

- مش بيقولوا الحب يصنع المعجزات.. أهو ده اللي حصل يا ستي.

ثم وجدت أن الوقت يمضي فقلت لها:

- مقولتليش.. ألبس أنهي بنطلون الفاتح ولا الغامق؟!

- الفاتح.. ربنا يفتحها في وشك يا يونس يا أخويا يارب.

- طب يلا أرجوكي مش كل مرة هفضل لابس ومستنيكي ساعة قدام باب الأسانسير.

ارتديت ملابسي سريعًا وكالعادة بقيت منتظرًا مها نصف ساعة إضافية حتى انتهت من ملابسها ثم انطلقنا إلى الجلسة.

كانت الجلسات تعقد على مسافة قريبة من منزلنا تحت إشراف طبيب نفسى مختص في مثل هذه الحالات وكنا قد اعتدنا أن نتجمع في ردهة أحد العيادات الخاصة التابعة له.

في ذلك اليوم قضيت أطول ساعتين في حياتي بأكملها.. كاد الملل أن يقتلني مرة وكاد الغضب أن يقتلني عدة مرات.. ذلك لأن سعاد لم تأت اليوم.. وحين وصلت العيادة أخذت أفتش عن وجهها فلم أجدها.

انقبض قلبي بشدة وقلت في نفسي ربما تأخرت بسبب الزحام.. جلست أصبر نفسي قائلًا لا تقلق ستأتى بعد قليل.. وفي كل مرة كانت تطرق إحدى مساعدات الطبيب الباب كنت أنتفض ظنًا منى بأنها قد أتت أخيرًا.

كم كان يمضي الوقت ببطئ شديد.. وكم كنت أتمنى أن تأتي.. ولكن انتهى الوقت ولم تأت سعاد.. غابت سعاد اليوم.. غابت وغاب كل شيء معها.. حتى تلاعب القلق بعقلي وقلت لمها في يأس وإحباط شديدين:

- سعاد مجتش.. اتصرفي اعملي حاجة.

ابتسمت إبتسامة ساخرة وقالت:

- أعمل إيه يعني؟!

- إسألي عليها طيب

- تدفع كام يا دنچوان؟!

- وده وقته يا مها إخلصي الراجل هيمشي.

- بتزعق في أختك حبيبتك عشان حبيبة القلب شكرًا يا سيدي.

- يا مها عشان خاطري بقى يلا

فتحدثت مها مخاطبة الدكتور:

- هي سعاد مجاتش النهاردة ليه يا دكتور فؤاد؟!

نزع الدكتور فؤاد منظاره الطبي ونظر إلي بخبث وهو يرد على مها:

- سعاد مسافرة تقعد يومين مع باباها في المزرعة في التل الكبير

- طب الحمد لله إنك طمنتني أنا افتكرتها تعبت ولا حاجة.

ثم انصرفت مها وهي واضعة يدها على كتفي قائلة:

- يا خسارة الشياكة

وضحكت وهي تدندن «القمر مسافر والسهر مسافر.. والفرحة مسافرة.. حتى الحزن سافر»

* * *

- ٥ -

(ما يبدأ في ديسمبر.. يستمر للأبد)

مضت الأيام بطيئة حتى شعرت وكأنها أعوام.

في انتظار جلسة الثلاثاء لحين عودة سعاد.. لا أدري متى تعلقت بها هكذا.. لا أعلم كيف تعلقت بها هكذا.. بالكاد أعرفها.. كيف حدث كل هذا في يوم وليلة؟

متى تعلقت لهذه الدرجة؟

لم أكن متطرفًا في مشاعرى أبدًا.. كل علاقاتي القديمة انتهت بسبب أنني كنت أقف دائمًا في المنطقة الرمادية.. لا أحب جدًا.. بل أحب فحسب.. أحب بتأنٍ شديد.. أقف على الحافة مرتعبًا من سقوطي نحو المجهول.. ولكن مع سعاد اختلف الأمر تمامًا.. ووجدت نفسي مستعدًا للذهاب إلى نهاية العالم كي أراها تبتسم.. مستعدًا لمحاربة كل ما يقف في طريقي إليها.. لا أدرى من أين أتيت بكل هذه الطاقة.. وكل تلك الحماسة والجرأة.. للمرة الأولى أشعر بلذعة نار الحب.. وحرارة الأشواق.. ولهفة اللقاء.. أشعر أنني في الثامنة عشر من عمري.. وقلبي لازال بكرًا يتذوق كل المشاعر بحلاوة المرة الأولى.. والسر دائمًا وأبدًا هو سعاد.

كنا في ديسمبر وكنت على وشك الدخول في قوقعة الاكتئاب الشتوي الموسمي الذي يعصف بي دائمًا.. ارتديت المعطف التركي.. وهيأت نفسي واصطحبت مها للذهاب إلى الجلسة.. وقد كان يبدو عليها شحوب مخيف.. أحسست أن التعب سيعود في جولة جديدة.. لكنها أكدت لي أنها بخير وإن الامر مجرد إرهاق بسيط ليس إلا.

بدأت أحدثها عن شوقي لسعاد.. كانت مها صديقتي الوحيدة.. وكأنني كنت أتكلم مع نفسي عندما أتكلم معها.. قلت بشرود لها أنني بإمكاني انتظار سبع سنوات أخرى حتى يجيء يوم الثلاثاء القادم.. فقالت بأنه ليس هنالك داعٍ لأن أترك قلبي يتقلب على جمر الانتظار هكذا أكثر من ذلك.. وأنه لا يوجد ما يدعو للقلق حيث أنها على ما يرام.

ذهبنا للمرة الأولى من دون الكارفان، لست من هواة القيادة في مثل هذه الأجواء..كان الطقس شديد البرودة والأمطار على وشك الهطول.. ولم نكن قد وصلنا بالكاد حتى بدأت السماء أولى حفلات ديسمبر الشتوية.

بمجرد دخولى رأيت سعاد!.. فثبت عيني في عينيها.. ودون وعي مني قلت سائلًا:

- كنتي فين كل ده؟!

لم تتعجب.. كنت متأكد أنها تشعر بما أشعر به.. ردت بابتسامتها الملائكية:

- آسفة.. كنت مع بابا في العزبة

ثم نظرت هي إلى مها وسألتها:

- عاملة إيه يا مها.. طمنيني عليكي

ابتسمت مها بوهن وكان شحوبها قد زاد وقالت:

- الحمد لله أنا كويسة.. حمد الله على سلامتك.. العيادة كانت ضلمة من غيرك.

فابتسمت سعاد من جديد. ثم نظرت إلي لبرهة والتفتت خجلة.. ربما تعلم عن أمر اشتياقي لها.. لكنها بالتأكيد لا تعلم عن كم اشتياقي لها.

بدأ الجميع في سرد حكاياتهم.. تلك الحكايات التي أحفظها كلها..

كان كل شيء لطيفًا هادئًا.. حتى سقطت مها فجأة من على الكرسي دون أن يتحرك جسدها بعد السقوط.. سقطت مغشي عليها فانخلع قلبي.. رحت كي أحملها فوجدتها لا تنطق وجسدها بارد كالثلج.. هنا تدخل الطبيب على الفور وأمسك يديها ليتفحص النبض.. ثم قال:

- نبضها ضعيف جدًا.. غالبًا هبوط بسبب العلاج.. لازم تروح مستشفى فورًا.

فصرخت في الجميع سائلًا:

- حد معاه عربية هنا

ردت سعاد وهي تأخذ حقيبتها:

- أنا.. يالا بينا فورًا.

نزلنا في عجالة وأنا أحمل مها بين يدي.. أسابق الوقت مرة أخرى وتطاردني الهواجس والتوقعات السيئة.فكلما توقعت الأسوأ فاجئني القدر بأن هنالك أسوأ مما توقعت.. وضعتها في السيارة ممددة على الكرسى الخلفى وأرحت رأسها على رجلي.. قالت لى سعاد:

- متقلقش في مستشفى قريبة من هنا.. جنب بيتي على طول مستشفي الدرة.. خمس دقايق ونبقى هناك.

فلم أستطع الرد بكلمات مفهومة وقد ازداد خوفي.. هززت رأسي فقط.. وقلت:

- ربنا يستر.. ربنا يستر

كانت سعاد تقود بتهور لا يبدو عليها.. تطمئنني وهي تقول باستمرار:

- متقلقش.. بسيطة إن شاء الله..

وصلنا أخيرًا وكانت روحي تكاد أن تهرب مني.. ضربات قلبي سريعة وجسدي يرتعش من الخوف والقلق.. نزلت من السيارة لأسحب مها فاقترب مني اثنين من المسعفين وساعدوني لوضع مها على نقالة طبية موجودة جوار سيارة إسعاف المستشفى. قلت لسعاد دون أن ألتفت لها:

- شكرًا على كل حاجة.. ادعيلها.

فقالت لى:

- مفيش داعي لأي شكر يا يونس.. أنا هركن وهحصلكم على جوا

اختلج قلبي عندما نطقت باسمي للمرة الأولى لكني كنت مرتعبًا من حالة سعاد فلم أرد.

دخلت إلى موظفة الاستقبال.. وكانت كالعادة تتحدث في الهاتف.. لا أدري حقًا لماذا يكون موظفي الاستقبال في المستشفيات هم الأكثر برودًا.. لا أدري إن كان ذلك مقصودًا أو شرطًا أساسيًّا في قبولهم للوظيفة.. ربما أن الحوادث والحالات الطارئة والموت نفسه أصبح أمرًا روتينيًا بالنسبة لهم ولذلك فإنهم يتعاملون مع الجميع باعتبارهم مجرد أرقام في كشف اليوميات.. ربما يعانون أكثر مما نظن نحن.. لكني في كل مرة أدخل فيها إلى أي مستشفى أجد معظم العاملين فيها يتعاملون بهدوء وبرود مستفزين.

أسرعت في طلب طبيب طوارئ بأقصى سرعة.. فأدخلوها إلى غرفة الطوارئ.. وحضر الطبيب في أقل من دقيقة.. بدأ الطبيب يسألني عن حالتها.

- هي بتشتكي من حاجة؟!.. بتاخد أدوية للضغط، للسكر.. للقلب؟!

أجبته:

- أيوة هي مريضة سرطان.. هي على بروتوكول العلاج من فترة

قام بفحص علاماتها الحيوية وأوصل جسدها بعدد كبير من الأسلاك المتصلة بشاشات لا أفهم ما الذي تعنيه قراءاتها.. بعد دقائق من الفحص انشرح وجه الطبيب وقال مطمئنا:

- ما تقلقش خالص.. هي عندها بس هبوط حاد عشان واضح إنها مبتنامش ومبتاكلش كويس

تنهدت وحمدت الله. طلب مني الطبيب أن أنتظر في الاستقبال لحين تستفيق وتستعيد حيويتها مع المحاليل التي سيقوم بتعليقها لها.. وكان هاتفي لا يكف عن الرن.. رددت على شريف الذي اتصل عشر مرات منذ تحركنا من عيادة الطبيب النفسي.. أخبرته بمكاني فوصل في أقل من عشر دقائق.. كان المسكين يدور بسيارته حول المكان محاولًا توقع مكان المستشفى وقد كان مصيبًا.

أخبرني فور وصوله واطمئنانه عليها من الطبيب المقيم أنه كان يرتب مفاجأة لمها وكان من المفترض أن يأخذها بعد الجلسة للعشاء في أحد مطاعمها المفضلة ولكن حدث ما حدث.. تركته معها بعدما سألته وأعصابي تكاد أن تنهار وقد كنت أحتاج أن ألقي بنفسي على أي مقعد:

- شريف معاك سجاير؟!

تعجب وسألني لائمًا:

- إنت مش مبطل؟!

- مبطل بس عايز أشرب سيجارة.. متخافش سيجارة واحدة

- ماشي يا سيدي اتفضل.. بس أوعى تقول لمها إني اديتك سيجارة.. أنا ما صدقت إنها رضيت عني.

ابتسمت وأخذت منه السيجارة وخرجت لأدخن خارج المستشفى..

هممت بإشعالها فوجدت سعاد أمامي.. سألتني:

- إيه ده هو انت بتشرب سجاير؟! افتكرتك مش مدخن عمري ما شفتك بتدخن في الجلسات

شعرت بالحرج.. وكأنني صرت طفلًا صغيرًا وقد أمسكت به والدته وهو يسرق الحلوى.. قلت مبررًا دون أن أشعل السيجارة.

- مبطل.. بس الجو ده والتوتر واللي حصل.. حسيت إني عايز أشرب سيجارة.

قالت سعاد:

- اممم.. ماشي.

ترددت كثيرًا كي أشعل السيجارة أمامها.. لم أدري ما الذي أصابني.. بينما قالت لي:

- عارف.. أنا خناقاتي كتير قوي مع بابا بسبب تدخينه للسجاير.. بصراحة بكرهها وبكره ريحتها وبتخنق منها.. مش عارفه إزاي الإنسان يبقي ربنا مديله نعمة زي نعمة الصحة ويفرط فيها.

نظرت إليها وشردت في وجهها وهي تتحدث أمامي بكل هذه العفوية.. وشعرت أنني أعرفها منذ الطفولة..

قلت لها وأنا ألقي بالسيجارة على الأرض أمامها دون أن أشعلها:

- وعلى إيه.. الطيب أحسن.. شكرًا إنك وصلتينا لحد هنا.. مكنتش عارف هعمل إيه لو مكنتيش موجودة.

وكان هذا الكلام بدلا من أن أقول لها "أنا أحبك بجنون" في نهاية كل جملة.. في لحظة نسيت التوتر الذي أصابني بسبب تعب مها تمامًا.. يا إلهى ماذا حدث.. ما السر في تلك العينين الهادئتين الجميلتين؟

صمتت سعاد قليلًا ثم تذكرت أني كنت أشكرها فقالت وكأنها مرتبكة قليلًا:

- مفيش داعي بجد تشكرني أنا معملتش غير الواجب وأي حد مكاني كان هيعمل كده.. هي أخبارها إيه دلوقتي؟! وشك أهدى.. يا رب تكون بقت أحسن

- الحمد لله الدكتور طمني.. هي أكيد فاقت دلوقتي.. تعالى نشوفها.

دخلت أنا وهي جنبًا إلي جنب.. وحين رأتنا مها ابتسمت ابتسامة عريضة.. فقلت لها:

- حمد الله ع السلامة.. مش هحاسبك علي الخضة دي دلوقتي.. أظن شريف قام بالواجب.

ثم قلت لسعاد مشيرًا إلى د. شريف:

- أعرفك يا سعاد.. د. شريف ابن خالتي.. وخطيب مها.

ردت سعاد وقد بدا على وجهها خجل بسيط:

- أهلا وسهلا.. تشرفت بمعرفتك يا دكتور.

ثم تابعت سعاد وهي تنظر إلى مها:

- حمد الله على سلامتك يا مها.. يونس كان هيتجنن عليكي.. ربنا يخليكم لبعض.

قالت مها بوهن:

- الله يسلمك يا حبيبتي.. كتر خيرك تعبناكي معانا.

- لا تعب إيه بس لا تعب ولا حاجة.. الحمد لله إنك بقيتي كويسة.. هستأذن أنا بقى زمان بابا قلقان عليا.

ارتجف قلبي عندما أتت سعاد على ذكر الرحيل فقمت قائلًا:

- طيب يا مها أنا هخرج أوصل سعاد لحد العربية.

وكنت أحاول أن أقضي معها أي دقائق ممكنة بعد غيبتها الطويلة الماضية

خرجت بصحبة سعاد متمنيًا أن يطول الطريق إلي السيارة قدر الإمكان.. وكنت أعرف أن الدعاء وقت المطر مستجاب.. لكني لم أتخيل أن تتم الإجابة بتلك السرعة.

وصلنا إلي السيارة فوجدنا بها "كلبش" المرور.. ربما بسبب أنها ركنتها بالصف الثاني.. أو ربما هى استجابة الله لدعواتي بأن أقضى معها أطول وقت ممكن.. وكان هذا هو أجمل ما حدث في ذلك اليوم.

رأت سعاد السيارة فابتسمت كالعادة ولم تمتعض أبدًا..قالت ببساطة شديدة:

- بسيطة.. البيت قريب من هنا.. هتمشى الكام خطوة دول ولما أوصل هخلي حد يكلم الونش أو أمين الشرطة يفكها.

فقلت لها في طريقة أقرب إلى التوسل:

- إسمحيلي أعتذرلك علي الموقف السخيف ده ولو ينفع أوصلك لحد البيت.

- صدقني مفيش داعي البيت مسافة خمس دقايق مشي من هنا مش عايزة أتعبك معايا.

وكانت تشير بيدها الرقيقة إلى نهاية الشارع فقلت:

- تعب إيه بس مفيش تعب ولا حاجة.

وهنا قاطع حديثنا هطول المطر فجأة.. كانت رخات بسيطة لكنها من الواضح أنها ستشتد بعد دقائق.. فقلت لها:

- شوفتي بقى أهو كده مش هينفع أسيبك تمشي لوحدك.. جات من عند ربنا.. يا إما ناخد تاكسي حتى لحد البيت.. أو أخلي شريف يطلع يوصلك

قالت بسرعة:

- لا لا ما فيش داعي مش هينفع نسيب مها لوحدها.

ثم قالت وهي تهز رأسها كالأطفال:

- غير إني بقالي كتير ما اتمشيتش تحت المطر.. يمكن من وأنا صغيرة.

- ودون تردد بادرت بخلع المعطف التركي ووضعته على كتفها دون انتظار أن تقبل أو ترفض:

- البسي ده عشان متبرديش.

فابتسمت بشكر وامتنان.. وكنت أظن أن هذا يحدث فقط في الأفلام الرومانسية.. كنت أحسبه مبالغة تفنن فيها الكتاب والمؤلفون.. لكني وجدت نفسى أفعله بكل تلقائية شديدة

وضعت المعطف على كتفيها.. فابتسمت وخلعت كوفيتها الحمراء وهي تقول:

- ماشي.. وانت طب خد لف دي على رقبتك لاحسن تبرد وتحسسني بالذنب.

وكانت تلك هي أجمل صفقة عقدتها في حياتي.

كانت تضع عطرًا مألوفًا للغاية.. عرفته منذ الوهلة الأولى إنه «Dior J’Adore».. عرفته لأن أبي أهداه لأمي في عيد ميلادها ذات مرة قديمًا.

كنت وقتها قد تسللت إلي غرفتهما وأغرقت نفسي به.. ولما رأتني أمي تفاجأت.. سقطت الزجاجة من يدي وانكسرت.. ظلت الغرفة تفوح بتلك الرائحة لأكثر من شهر كامل.. وغضبت أمي حينها كثيرًا ولم تحدثني لمدة يومين كاملين.

سرنا سويًا أنا وسعاد وكأنني كنت أحلم.. وكأن القاهرة صارت أجمل من باريس.. وكأننا في ليلة الميلاد في نيويورك.. كان الجو مثالي تمامًا للوقوع في الحب..

وصلنا إلى منزلها في النهاية فقالت وهي تشير إلى بوابة إحدى الفيللات العتيقة:

- بس خلاص الفيللا دي.

نظرت متفحصا فإذا بها تعيش في قصر وليس فيلا عادية.. وحين رآنا البواب أسرع مهرولًا وهو يقول:

- خير يا ست سعاد.. العربية فين؟.. البيه بقالة أكتر من ساعة بيتصل عليكي تليفونك مقفول وكان قلقان جدًا.. وأنا لسة جاي من العيادة لقيتهم قالولي إنك في المستشفى مع حد تعبان كفى الله الشر.

قالت سعاد وهي تنظر إلي:

- بعدين يا عم إبراهيم.. بعدين

ثم همت لتعطيني المعطف فرفضت قائلًا:

- هاخده يوم التلات الجاي ومتقلقيش الكوفيه معايا.

ودون قصد نظرت إلي إحدى شرفات الفيللا..فوجد رجلًا عجوزًا يدخن سيجارًا غليظًا في شراهة واضحة.. توقعت أنه والدها فلوحت سعاد بيديها بشكل عفوي مرحبة.. لم يبادلها التحية.. فقالت بارتباك"

- طيب يا يونس.. أشوفك يوم التلات إن شاء الله وحمد الله على سلامة مها.

ودعتها وانصرفت وفي قلبي سعادة ملئ الأرض وما عليها.. ثم قلق صغير بدأ ينمو من مشهد والدها الغاضب في الشرفة.

سرت أدعو الله في هذا الجو المطير أن يستمر جمال ما بدأ في ديسمبر إلى الأبد.

* * *

(كرسي الاعتراف)

كما جرت العادة صرت أحترّق شوقًا لجلسات الثلاثاء.. أصبحت حياتي كلها تدور حول تلك الجلسات.. وصرت أتحدث مع سعاد كل يوم.. كنا نتحدث لدقائق قليلة كل يوم نهارًا ثم أصبحت الدقائق القليلة ساعات مستمرة.. أصبح جدول يومي معها وجدول يومها معي.. صرنا نعرف كل شيء عن بعضنا البعض تقريبًا.. وفي خلال أشهر قليلة صرنا واحدًا مكتملًا بعد أن كنا نصفين ناقصين.

خرجت من دائرتي الآمنة أخيرًا.. وأصبحت اجتماعيًا بعض الشيء.. أصبحت أجري أحاديثًا مع الوجوه العابرة في يومي.. كبائع الخبز أو صاحب محل البقالة. ألقي التحية على جيراني مما كان يدفعهم في البداية للإستغراب.. من المؤكد أنهم يسألون أنفسهم ويقولون «ماذا حل به؟!»..

شخص مثلي قضى ثلثي عمره يتحاشى الناس ويتجنبهم قدر المستطاع.. صاحب أقل عدد كلمات في أي محادثة جماعية.. قديمًا في كل مرة كنت أذهب إلى حلاق مختلف لكي أستمتع بصمته وجهله بي وبشخصيتي، وأهرب من فضول الحلاقين القاتل.

لا أدري من أين لهم بهذه الطاقة التي تجعلهم قادرين على التحدث بشكل لا ينقطع وكأننا في مسابقة.. ورغم المرح والونس الذي يضيفونه إليك بعد كل جلسة إلا أن الموضوع كان مرهقًا للغاية.. كان هذا المشوار هو الأثقل على قلبي بالطبع.. ولم أكن لأذهب بإرادتي أبدًا.. لكنها ضريبة المظهر الحسن.. وفي كل مرة كنت أعطي خمسة نجوم لسائق «أوبر» الذى لم يتحدث مطلقًا.. تعبيرًا عن إمتناني الشديد.. وأقول ياليت كل الأمور تحدث دون أن ننطق بأكثر مما يلزم.

ها أنا أواجه الحياة الآن بنسختي الجديدة.. هشمت قوقعتي وتركتها خلفي.. وتركت نفسي للريح تحركني.. لا أدري أين سينتهى بي المطاف لكنني سعيد.. سعيد بحريتي وأشعر أنني أتذوق طعم الحياة للمرة الأولى.

كانت جلسة الثلاثاء تلك مختلفة تمامًا.. فقد كانت المرة الأولى التى تخرج فيها سعاد عن النص قائلة لي في تحدٍ:

- وانت يا يونس.. مش ناوي تشاركنا ولا هتسمع بس زي كل مرة؟!..

لم أدرِ كيف استطاعت أن تحل عقدة لساني بسؤال واحد.. حتى أنني شعرت فجأة بنهم للكلام.. أن أتحدث ويسمعني الناس.. وجدت نفسي على كرسي الاعتراف وقلت لهم:

- أوي أوي.. بس الحقيقة مش عارف أبدأ منين

قال د. فؤاد:

- هنتكلم عن نفس الموضوع بتاع النهاردة.. يالا يا بطل احكيلنا.

كان موضوع الجلسة في ذلك اليوم عن «البطل المثالى» لكل من الموجودين.. وكانت مها قد اختارت أمي بالطبع.. أما أنا فاخترت أبي.

أبي.. ذلك البطل الذى قصَّت الحياة أجنحته وهو في أوج عطائه.. كان أبي مهندسًا في إحدى الشركات العالمية في المملكة العربية السعودية.. ملفه الوظيفي حافل بالإنجازات وسنوات الخبرة.. كان محبوبًا من الجميع وراتبه يكفي لأن نعيش في رغد وأن تكون كل أحلامنا أوامر.. لكنها فواجع الأقدار.. تتغير حياة المرء في لحظة.. وقد لا تتغير فحسب وإنما تنتهى أيضًا.

الثامن والعشرون من ديسمبر لعام ٢٠٠٠.. في هذا اليوم ذهب أبي إلى العمل ولم يعد منه أبدًا كما كان.. لم يكن من اختصاصه أن يتواجد في مواقع البناء.. ولكن لسبب ما لا يعلمه إلا الله.. ذهب في ذلك اليوم للإشراف على إحدى المنشآت الجديدة.

لسبب أكثر غرابة اعتلى إحدى السقالات الخشبية.. لم تمض دقائق حتى هوت به وسقط على الأرض.

مضت عليه سنة كاملة وهو في شبه غيوبة تامة.. يفيق حينا ويعود للغيبوبة حينا آخر.. وحين استفاق في النهاية استفاق على شلل شبه كامل.

لم يستطع أبي أن يحرك سوى يده اليسرى فقط.. من بعدها تدهورت حالتنا المادية كثيرًا.. تركنا المدرسة الخاصة بكل ما فيها من رفاهية وانتقلنا إلي المدرسة الحكومية بكل ما فيها من صراع.

كل هذا حدث في غمضة عين.. إنهار أبي فانهار كل شيء معه.. كنت أسمع أنَّاته من آلام قُرح الفراش الناتجة عن الرقاد لأربع وعشرين ساعة في اليوم.. بينما أهلكت أمي تكاليف العلاج.. حتى مضت خمس سنوات وأبي لا يتحسن أبدًا..

استيقظنا ذلك اليوم على تلك الفاجعة الكبرى.. تناول أبي خطئًا كما أظن جرعة زائدة من إحدى الأدوية المهدئة.. جرعة كان من شأنها أن تغوص به في إغماءة جديدة لم يعد منها أبدًا.

رحلت روحه في ديسمبر ٢٠٠٠ ورحل جسده تباعًا بعدها بخمس سنوات في ديسمبر أيضًا.. لم يكن موتًا رحيمًا أبدًا.. وما كان أبي ليتركنا بإرادته.. سلبت الأيام روحه.. ومن وقتها ظلت أمي مكتسية بالسواد إلى نهاية عمرها.. أي وفاء هذا وأي حزن عاشته.. كانت تقول دائمًا «أبوكوا يستاهل إني أعيش على ذكراه العمر كله»..

كانت تحب أبى كما ينبغى للحب أن يكون، وأنا اخترت أبى بطلًا مثاليًا لحياتي باعتبار ما كان ليكون لولا أن باغتتنا القدر.

كانت أمي صبورة بحق.. وكانت مؤمنة بالله.. كانت تقول لى دائمًا أن هنالك حكمة.. وأن قدر الله وحكمته ثلاثة دروس.. وتضرب لي مثلًا بسورة الكهف وقالت: فأما السفينة وهذا الدرس الأول.. خُرقت السفينة فعاد المساكين دون طعام.. يضربون كفًا على كف ظنًا أن الله قد حرمهم.. وفي نفس اليوم يأتى خبر الملك الذى كان يأخذ كل سفينة غصبًا.. ويدركون أن عناية الله ولطفه أنقذوهم.. وكيف ينجو الإنسان بالخط السيء من الحظ الأسوأ.

وتستكمل كلامها: فأما الغلام وتقول: تلك الأم الثكلى قضت عمرها كله لا تدري الحكمة من مقتل ابنها.. وربما ظلت على ظنها بأن الله سلبها قرة عينها.. ولم تكن لتعلم أبدًا أن الله أخذ منها من يشقيها ليعوضها بمن يسعدها

ثم تختتم قائلة: «فأما الجدار».. وتلك هي حكاية الصبر.. قد يمنع الله عنك شيئًا فقط لأنك لست مستعدًا لأن تملكه.. وربما لو أخذت ما تتمناه الآن لشقيت بيه ولفقدته.. فثق وتأكد أن الله يختار التوقيت الأنسب دائمًا.

أعطتني أمي درسًا في الأيمان والصبر واليقين بالله.. علمتني الحمد التفصيلي.. كانت تقول لا تقل الحمد لله فقط.. قل الحمد لله علي نَفسِك ونَفَسك وسمعك وبصرك وصحتك.. قل الحمد لله على مأكلك ومشربك وملبسك وسقف بيتك وأهلك ومالك.. قل الحمد لله على غطاء ستره وخفي لطفه وكريم عفوه ورضاه عنك.. أشكر الله حق شكره.. وتأكد بأن الله هو أنيس وحدتك وراعى قلبك ومأمنك من فواجع الأقدار.

أنهيت كلامي وأنا أشعر برغبة في البكاء والمزيد من الكلام في نفس الوقت.. أدركت عندما حكيت أن حياتي كانت سلسلة من المصاعب.. ولا أدري كيف استطعت الاستمرار قويًا إلى ذلك الحد.

كانت سعاد تسمعني بلهفة شديدة.. وفاجأتني بسؤال لم يكن في حسباني أبدًا قائلة:

- طب بعد الحدوته الجميلة دي مش هتسمعنا قصيدة من قصايدك.

تجمدت أطرافي وأنا أفكر كيف علمت بذلك.. لم أخبرها تفصيلًا من قبل عن احترافي لكتابة الشعر رغم حديثنا المطول مؤخرًا.. لكني حتى لم أقرأ لها من قبل أي مما كتبت خوفًا منها أن تظنني ألاعب مشاعرها بحلو الكلام.

سألتها دون أن أبدي اهتمام لمن كانوا معنا في الجلسة:

- وانتي عرفتي موضوع الشعر ده منين؟!

ردت وهي تبتسم كالعادة:

- لقيتك ناسي قصيدة في جيب الجاكت اللي سيبته معايا يوم المطر.. بالمناسبة.. بتكتب شعر حلو جدًا جدًا من غير مجاملة

شعرت أن وجهي يحمر خجلًا ثم قلت:

- ممكن نخلي الموضوع ده بينا

وطلبت من د. فؤاد أن يقوم من عليه الدور بسرد حكاية بطل حياته.

وعندما أنهيت الجلسة قلت لسعاد ونحن منصرفين:

- لما تحبي تسمعي شعر بعد كده قوليلي.

فردت:

- عاوزه أسمع شعر حالًا.

فوقفنا في منتصف الطرقة المؤدية إلى السلم وقلت لها:

«محبتش قدك..

بقولها كأني ف نهاية حياتي

وحاسم إجابتي وقراري الأخير

محبتش قدك..

وكان كل همي ومازال إني أشوفك

سعيده وبخير»

وقبل أن أكمل نظرت سعاد إليَّ بفرحة وخجل شديد في نفس الوقت.. واتسعت ابتسامتها أكثر وأكثر.

* * *

(يا مرسال الهوى)

في تلك الليلة طلبت منى مها تبادل غرفتينا بالمنزل.. لأن غرفتها كانت تطل مباشرة على الشارع وكانت تعاني من مشاكل في النوم بسبب أصوات المارة وضجيج السيارات.

لم أتأزم ولم نتناقش في الأمر..فقد نفذت طلبها بمنتهى الأريحية.. بل أسعدنى إحساسي بأنها بدأت تفكر في راحتها في المقام الأول ربما لأول مرة في حياتها.

كانت غرفتي غارقة في كراكيبها وفي كل ما غطاه تراب الزمن.. حيث كانت هذه هي غرفة أبي وأمي سابقًا.. ولاتزال رائحة أمي في كل شبر فيها.. لا زال طيفها ينفذ عبر كل جدار.. وبينما كنت أقوم بنقل أغراضي.. سقطت من فوق الدولاب حقيبة جلدية صغيرة تعود لأبي.

كانت رفيقته في رحلته إلى العراق.. انفتحت الحقيبة فور سقوطها لأرى بداخلها وشاح كشميري اللون أعرفه جيدًا.. فقد رأيته في إحدى صور أمي التي احتفظت بها.. وكأن سهمًا من حنين أصاب قلبي إصابة مباشرة أسفل منتصف الأشواق.

احتضنت الوشاح كأنه روح أمي وريحها الطيب الدافئ.. من المؤسف أن الروائح لا توصف بالكلمات.. لكن إن كان هنالك وصفًا لرائحة أمي.. فستكون رائحة «العودة «.. أشعر حين أتنفس رائحتها أو أتذكرها أنني قد وصلت وجهتي.. أنني أخيرًا بالمنزل.. أشعر بالطمأنينة وأن قلبي في المكان المناسب تمامًا.

أسندت ظهري للحائط وغرقت في محتويات الحقيبة.. حتى وجدت مجموعة من الخطابات المتبادلة بين أبي وأمي.. أمسكت أحدهم فكان خطابًا من أبي لأمي بتاريخ الحادي عشر من يوليو عام ١٩٨٦ في عيد ميلادها

.. فتحته وكلي شوق وحنين إليهما.. وأخذت أقرأ ما كتبه أبي.

«حبيبتي زينب

ما أعظم ما يفعله الحب بالإنسان.. وما أغربه من تغير طرأ على كل تفاصيل حياتي.. أصبحت شخصًا مختلفًا تمامًا.. أقبلت على الحياة وكأني أتذوقها بحلاوة البدايات.. اختلف إحساسي بكل شيء.. حتى أن الهواء الذى أتنفسه كأنه يدخل رئتي للمرة الأولى.. لا أستطيع أن أوصف مدى لهفتى لتلقي ردك على خطابي.. ولا أعرف كيف أصف لك إحساسي وأنا أعد الدقائق بل الثواني حتى رجوعى.. كيف حدث كل هذا.. كيف لي أن أتحول من شخص يكره كتابة الخطابات ولعل

دليلي القاطع على ذلك هو أني لم أرسل لأبي وأمي في خمس سنوات سوى ثلاثين خطابًا.. إلى شخص يود الآن لو يرسل لك ويتلقى رسائلك كل يوم..

ردًا على خطابك السابق أنا بخير.. لا ينقصنى سواك.. تأخرت في الرد لأن إبراهيم صديقي وزميلي في السكن كان يعاني مغص كلوى أجرى على إثره عملية جراحية واضطررت لملازمته طيلة الأسبوع الماضي.

بالأمس سمعت أغنية لنجاة الصغيرة في الراديو.. شعرت بكلماتها وكأنها كتبت لنا.. كانت الأغنية تقول:

«يا ليل أنا حبيت يا ليل

وأنا عمري ما حبيت يا ليل

بصيت لقيت الشوق خدني في ساعة شوق

جبنا النجوم من فوق

وعملنا منهم بيت

يا قلبي عيش وارتاح

جنة حبيبي براح

اشتقت إليك كثيرًا.. الآن أشعر ببرد المسافة ومرارة الغربة.. لقد اشتقت للقاهرة.. مضى رمضان وعيد الفطر واقترب عيد الأضحى دون أن نشعر بهم.. في الغربة كل الأيام سواء.. وفي بعدك كل البلاد غربة.. إني أحبك إلى أن يجمع الله بين أيدينا وإلى أن تلتقي أعيننا.

حبيبك المخلص

سراج

الآن فهمت سر بكاء أمي ذلك اليوم.. فبعد وفاة أبي ظلّت أمي صامدة أمام دموعها.. متماسكة بلطف الله وسكينته.. عام كامل لم تتلألأ عينها بدمعة واحدة حتى أتى ذلك اليوم الذي ركبنا فيه تاكسي في طريقنا لمنزل جدي.. إلي أن سمعنا تلك الأغنية في الراديو:

«يا مرسال الهوى روح بلغه مرسالي

مرسالي شوق ومحبة أكتر من الليالي»

انفجرت أمي حينها بالبكاء كما لم يحدث من قبل حتى أنها لم تستطع إكمال الأغنية.. ونزلنا قبل بيت جدي بشارعين.. شارعين دون أن تكف عن البكاء.. بكت حتى خلع نحيبها فؤادي.. فقد كانت تبكي كطفلة.. يا لها من نهنهات كادت أن تقتلها.. حتى استقبلنا جدي بدموعها التى لم تتوقف.. يا إلهى يا له من يوم وما أصعب تلك الأحزان المؤجلة وفواتير الدموع التي تراكمت إلى أن أتى وقت السداد..

في الحزن قد تظن أنك نسيت وتجد نفسك تحت طائلة الحنين فجأة.. تذكرك الأماكن والشوارع والأغاني والأجواء.. أجّل ما شيءت من معاركك مع الماضي.. سوّف كل أحزانك قدر ما إستطعت.. ستتمكن من الاختباء لكنك لن تتمكن من الهرب.. سيأتي اليوم الذي تقسمك فيه قشة.. لا تترك نفسك للتراكمات.. إذا أردت البكاء إبكِ فحسب.. لا تؤجلها.. لا تداريها.. لا تحاول الهروب من حزنك.. فقط عشه بكل ما فيه.. إعطه حقه.. تألم أنت لست حجرًا. أنت لا تدرى متى سيباغتك الحنين وأين. الآن تأكدت أن أمى أحبت أبي كما لو كان حلم عمرها وظلت مخلصة على عهدها له إلى أن تبعته.

يا له من زمن دافئ.. الخطابات المكتوبة بخط الأيدي.. تشعر أنها تكاد تنطق وتشعر أن الورق كائنًا حيًا.. وأن للمشاعر صوت وللكلمات أيادٍ تواسيك وتربط على قلبك.. كيف ضعنا في هواتفنا فصارت الابتسامة مجرد «رسمة» والتهنئة مجرد إشعار والضحك مجرد «وجه سخيف مبتسم».

أشعر أننا اندثرنا ولم نتقدم للأمام.. أصبح العالم بالكامل افتراضي كأن لا شيء حقيقي.. كيف أصبحت مواقع التواصل الاجتماعى هي سبب التباعد الاجتماعى بالأساس.. كيف سرقت التكنولوچيا أعمارنا وأرواحنا وسعادتنا.. كيف صار الكثير من كل شيء يفقده قيمته؟ لا أفهم كيف؟

كيف تطورنا من القناة الأولى والثانية إلى شرائط الفيديو ومن ثم الريسيڤر.. والآن منصات المشاهدة الإلكترونية.. كيف امتلأت القوائم بكل هذا الكم من القنوات والأفلام دون أن تجد فيلمًا واحدًا يستحق المشاهدة.. كيف وأنا لازلت أذكر كيف كان خالي يقضي السهرة في ضبط الهوائي وكيف كنا نشاهد الأفلام في صورة غير واضحة بمنتهى اللهفة والحماسة.

الآن نحن في زمن الـ 8K.. لكن بالفعل لا شيء حقيقي.. تشعر أن الحياة بالكامل أصبحت كالوردة البلاستيكية.. ربما يكون شكلها جميل لكنها دون روح. آه لو كان بإمكاني أن أبقى في التسعينيات بقية عمري.. أشاهد ذلك الصراع المشتعل بين محمد فؤاد وعمرو دياب.. أستمتع ببساطة حميد الشاعري وبهجة مصطفى قمر.. أحاول إقناع نفسي أن الأميرة ديانا لم تُقتل وأن شمس الزناتي كان مجرد فيلم ولا داعى لكل هذه الدموع في وداع سلامة الطفشان.. أهرب من زحام القاهرة لبلكونات شقق راس البر.. والبليلة باللبن والسُكَّر في مقتبل النهار قبل الذهاب للبحر.

شرائط الكاسيت قبل أن يقتلها اليوتيوب.. والنيجاتيف في زمن ما قبل الفوتوشوب.. أبدأ يومي بـ «حلمنا نهار ونهارنا عمل».. وأختتمه بـ «أمي كم أهواها»..

أبكي في وداع الأسد موفاسا في فيلم «الأسد الملك» للمرة الألف كأنها المرة الأولى.

يا ليتني لم أكبر أبدًا.. يا ليتنا بقينا صغارًا.. يا ليتنا بقينا صغارًا.

* * *

(ابنة رجل مهم)

ليس هنالك ثمة شعور قد يفقد الإنسان الحياة مثلما يفعل الخوف.. لا الحزن ولا مرارة الفقد ولا ألم الهجر ولا حسرات الفراق قد تفعل بالإنسان ما يفعله الخوف.. فالإنسان إذا خاف اضطرب وإذا اطمئن اقترب.. لا شيء يساوي الشعور بالطمأنينة.. حتى الحب إذا اقترن بالخوف زال.

الجميع في رحلة بحث دائمة عن السكينة وعن الأمان.. الجميع يبحثون عمن يقول لهم.. أنا بجانبك.. ويسألونهم هل أنتم بخير؟!.. هل كان يومكم جيدًا؟!

لا بد من وجود شخص ما يربت على كتفيك وقت الضعف. من منا لم يشعر أبدًا بأنه بحاجة لأن يكون بمفرده لكن في وجود من يحبهم بالجوار!.. الخوف لا يقتلك.. لكنه لن يبقيك على قيد الحياة..

كانت لأمي تجارب قاسية مع نوبات الهلع بعد وفاة أبي.. في المرة الأولى انتهى بنا الأمر في غرفة الطوارئ.. في لحظة ما ظننت أنها النهاية.. وبعدها أخبر الطبيب جدي أنها نوبة هلع ليس إلا، وكانت هذه هي المرة الأولى التي نسمع فيها هذا الاسم.. وأنها عارض من أعراض الاكتئاب.. بل أشد الأعراض قسوة.. حيث وصفت أمي شعورها قائلة.. كأني أتنفس من ثقب إبرة.. زغللة العيون.. وتنميل الأطراف.. تشعر وكأنك على أعتاب الموت.. لكنه مجرد شعور كاذب بطله الخوف.. وكأن هنالك من أحدث فجوة في جدار روحك.. فأصبح الخوف يتسلل إليك.. ويستعذب تأوهاتك.. وقد ظلت أمي تستخدم عقارات مهدئة لفترة تجاوزت العامين.. الكوابيس كانت تغتالها كل ليلة.. الخوف.. ذلك الشبح اللعين. الخوف من الفقد قد يكون أفجع من الفقد نفسه.. وما كانت لتنجو لولا أن ربط الله على قلبها المسكين بنا.. ورأت فينا سببًا كافيًا للبقاء على قيد الحياة.

كانت تتماسك من أجل ألا ترى انعكاس خوفها في أعيننا البريئة.. لم تكف مها عن البكاء أبدًا.. كانت أشد أيام حياتي قسوة.. كيف تحول البيت الدافئ الصغير إلى شتاء مظلم سرمدي.. لم أعرف أبدًا ما هو الخوف إلى أن فقدت أبي.. حتى بعد إصابته.. حتى بعد أن أصبح مجرد شهيق وزفير ليس إلا.. لم أكن أعرف ما هو الخوف إلي أن فقدته

كان أبي هو القلادة التي تتواجد في منتصف العقد.. لكنها انفرطت.. فانهار كل شيء.. أعي تمامًا ما هو الخوف وكيف يورث الضعف.. لكني لم أعرف كيف يحول الخوف الإنسان ضعيفًا إلي أن قابلت والد سعاد.. أخبرتني سعاد أخيرًا أنهما تحدثا عني.. وأنه وافق أن تحدد لي موعدًا معه.

كان الموعد والموافقة قد تبدو مبشرة في البداية..

لكني كنت أعلم منذ النظرة الأولى في شرفته أن الأمر أصبح شخصيًا بيني وبينه.. حاولت اختلاق الأعذار أمام نفسي في بداية الأمر.. ثم نفذت مني أعذاري.. ووجدت نفسي مضطرًا لمقابلته لكي

أثبت لنفسي جديتي في ارتباطي بسعاد وتمسكي الحقيقي بها.

إنني في حياتي كلها لم أخش مواجهة أحد.. حتى الموت نفسه.. لكني وجدت نفسي مرتعدًا أمام تلك اللحظة.. حاولت تكذيب ظنوني.. حاولت أن أقنع نفسي أنه ربما غير انطباعه عني بعد كلمات سعاد..ربما لم لا؟!.. لكني لم أنم ليلة الموعد من شدة التفكير.. كنت أعلم أن علاقتي بسعاد متوقفة على تلك السويعات.. وأن ما قد يبدو موعدًا على العشاء في ظاهر الأمر.. ربما يكون موعدًا مع النهاية.. فهو يستطيع أن يمنعني من رؤيتها إلي الأبد إن أراد.

في صبيحة ذلك اليوم.. أخذت أرتب لكل السيناريوهات الممكنة.. وأنتقى كلماتي بعناية شديدة.. ماذا لو قال كذا.. ماذا لو سأل عن كذا.. ماذا لو طلب كذا.. كمن يحاول مواجهة الطوفان بسد من ورق.. لست من هواة الملابس الرسمية.. ولم أمتلك بدلة كاملة مطلقًا.. لكن سعاد أخبرتني أن ذلك قد يرفع من أسهمي لديه.. فتأنقت بقدر المستطاع.. إلي أن وجدت مها أمام باب غرفتي قبل الموعد بقليل.. في يديها علبة كُتب عليها concrete.. وقالت لي بصوت دافئ حنون..

- «عايزاك تبقى أشيك واحد في العالم النهاردة»

أجبتها في دهشة:

- جبتي الفلوس منين.. دي غالية جدًا..

فقالت لي:

- مش مهم منين.. المهم اني عايزة أشوفها عليك.. يلا بسرعة عشان متتأخرش

أخذت تساعدني في ارتدائها.. ها أنا اقترب من الثلاثين ولا أعرف كيف أربط الكرافات.. لكنها كانت تطمئنني بقولها:

- متقلقش أختك عفريته في الحاجات دي.

- عفريته منين يا مها مانا عارف البير وغطاه الله يكون في عون شريف.

- قصدك ايه يا يونس.. بقى ده جزائي.. طب روح خلي الست هانم تربطلك الكرافات.

- يا ستي ميبقاش خلقك ضيق كدة.. أنا بهزر معاكي.. بس قوليلي الأول اتعلمتيها فين دي.

- شوفت فيديو على اليوتيوب.. أنا من يوم ما قولتلي إنك هتقابله وأنا مش على بعضي عمال أرتب لليوم ده وكأنه فرحك.. انت مش أخويا بس يا يونس.. انت ابني.. يعني أول فرحتي.

أخذت مها تتمتم بآية الكرسي وسورة الفلق.. وتدعو لي كما لو كانت جدتي.. تنهدت قلقًا وقبلتها وقلت:

- ربنا يخليكي ليا يا مها.. حقيقي بجد مش عارف من غيرك كنت هعمل إيه.. أو هعيش ليه حتى.. أنا لازم أنزل دلوقتي عشان متأخرش مش عايزين تبقى بداية القصيدة كُفر.. الراجل ده بيحسبها بالثانية.

- استني تنزل فين.. شريف جاي يوصلك بعربيته انت عايز الشياكة دي كلها تتبهدل؟

- حرام عليكي والله.. بقى انتي جايبه أهم جراح قلب في مصر يشتغل سواق لأخوكي.. وطبعًا على قلبه زي العسل

- لا يا يونس.. شريف ابن خالتك برضو ولازم يبقى في ضهرك في يوم زي ده.. يلا أهو شريف وصل.. متنساش تقرا آية الكرسي وانت داخل وتقول □ژ ژ ڑ ڙ ک ک ڪ ڪ گ گ گ ڳ ڱ □ .. روح ربنا يراضي قلبك زي ما انت مراضيني طول الوقت.. ربنا معاك يا حبيبي.

نزلت لأجد شريف قد زين السيارة بباقة ورد صغيرة جدًّا من الداخل.. كانت مبهجة للغاية.

قلت لشريف:

- مش بدري على الورد اللي عالعربية ده.. مستعجل على ايه

فقال:

- لا بدري ولا حاجة.. خلينا نتطمن عليك بقى.

كان الجميع يعاملني بلطف شديد.. حتى عم حكم البواب.. كان يدعو لي قائلًا: ربنا يسدد خطاك يا أستاذ يونس.. حينها شعرت بأنني فوّت على نفسي سنوات وسنوات من دفئ العائلة والأصدقاء.. ها أنا في منتصف عمري وليس لي صديق يذكر.. أعرف الجميع والجميع يحبني.. أنا أعلم ذلك.. وكلهم على بر وأنا على البر الآخر.. لم أخزن لنفسي صديق في مواجهة الأيام.. حتى ولو حاولت.. سأكون قد وصلت متأخرًا.. فالجميع أصدقاء منذ سنوات.. فاتني قطار الصداقة.. وها أنا أسعى بكامل قواي للحاق بقطار الحب.

* * *

وصلت في الموعد المحدد ولم أتأخر.. اعتبرت أني قد تجاوزت العقبة الأولى وقررت أن أتفائل ولو مؤقتًا.. كانت الأمور تسير بشكل طبيعي.. لم استطع إخفاء توتري بالطبع، فقد كان القصر موحشًا رغم أنه يضج بالخدم والأنوار والزينات والتحف واللوحات.. لكني لم آلف المكان ولم أشعر

بالانتماء لأي من أركانه.. حاولت إقناع نفسي بأن ذلك طبيعي.. فليس من السهل على من قضى جزء كبير من حياته في كارافان أن يجد نفسه مرتاحًا في بهو قصر به العديد من الغرف.

في غضون دقائق أتت سعاد.. يا إلهى كم كانت فاتنة في تلك الليلة.. جميلة مبهجة كالأميرات تمامًا.. ربما كان قدر كل من تُسمى سعاد حسني أن تكون سندريلا.. ابتسمت لي تلك الابتسامة التي لم تفشل أبدًا أن تجعلني مطمئن..و قالت:

- ايه الشياكة دي!.. انت كدة هتخلي بابا يغير أوي.

- أي حد يعرفك لازم يغير عليكي من كل الدنيا.

- بجد شكلك حلو أوي.. حاسة إني أول مرة بقابلك.. عارف أنا مستنياك تيجي من امتى؟!.. عارف يا يونس أنا كام مرة تخيلت اللحظة دي ورتبتلها.. وحضرت كلام أقوله ودلوقتي بقول كلام تاني خالص!.. انت حلم جميل يا يونس يا رب يكمل.

بقدر ما رفعتني كلمات سعاد من الأرض إلي السماء.. بقدر ما استحوذ علي الخوف.. الخوف من أن يتحول ذلك الحلم الجميل إلى كابوس مفزع.. تمالكت أعصابي بينما قاطعني سؤال سعاد:

- يونس.. سرحت في إيه؟!

- أبدًا.. فرحان بس ومش مصدق إن ده بيحصل فعلًا.. وإن الحكاية اللي بدأت بصدفة ونظرة عين دخلت في الجد.. حاسس إني بحلم.. أصلي عمري ما خدت اللي أنا عاوزه وعمر الدنيا ما مشيت على مزاجي.. وحتى الحاجات اللي خدتها مخدتهاش بالساهل.. باخدها يمكن بس بعد ما بتبقى روحي طلعت فمبعرفش استمتع بيها ولا أحس بقيمتها.

- يونس..

- نعم

- أرجوك خليك متفائل النهاردة كده عشان متضيعش الشياكة اللي انت فيها دي.. أنا بحبك وعايزاك تطمن خالص.. بابا مش ممكن ياخد رد فعل يزعلني.. هو بس عايز يعرف مين اللي قدر يقاسمه في قلبي بعد السنين دي كلها.. وأنا متأكده إنه هيحبك جدًا.

قاطعنا صوت السفرجي قائلًا:

العشا جاهز يا سعاد هانم

أمسكت سعاد بيدي لتصحبني إلى مائدة الطعام.. دخلنا من باب خشبي جرار ذو مقبضين مدهبين.. أو ربما كانا من الذهب فعلًا.. لا أعرف كل شيء هنا يوحي بالثراء الفاحش.

كنا أنا وسعاد نبدو وكأننا حبيبين منذ الأزل.. وفي الداخل استقبلنا والدها بابتسامة محايدة. رمقنا بنظرة لم أحدد إذا ما كانت نظرة استنكار أم دهشة.. ولكنه اتبعها بابتسامة.. أثلجت روحي.. وقال لي:

- أهلًا أهلًا يا يونس اتفضل

ثم جلس علي رأس المائدة فجلست على يمينه.. وجلست سعاد بالجهة المقابلة على يساره.

كان ودودًا بشكل لم أفهمه.. لم يتحدث مطلقًا عن علاقتي بسعاد.. لم يسألني عن أي شيء يخص كلانا.. كل الأجوبة التي رتبتها في خيالي راحت سدى.. وكأنه لم يكن يريد سوى أن يرانى عن قرب.. تبادلنا أطراف الحديث من الشرق إلى الغرب.. حتى شعرت وكأني في مقابلة عمل.. وكأنه يريد أن يكتشفني فحسب.. أو ربما يريد أن يقابلني كصديق لسعاد.. صديق ليس إلا.. ربما لم تخبره سعاد بماهية علاقتنا..

كان عظيم اهتمامه منذ بدأ العشاء يدور حول ما حدث لأبي وكيف تصرفت بعد رحيله.. وما الذي فعلته أمي بعده.. حتى أنه كان يسأل في أدق التفاصيل.. ثم سألني أسئلة عامة عن طبيعة عملي الخاص بالجرافيك وعملي الآخر الخاص بالكتابة والذي كنت قد بدأته منذ فترة قريبة بعد إلحاح شديد من سعاد.

انتظرت أن أتكلم أنا في ذلك الأمر.. ومن هنا سار كل شيء مبشرًا بشكل كبير. لكن القدر قد أبى ألا يخيب ظني في حدوث السيناريو الأسوأ.. فبعد أن كان كل شيء على خير ما يرام.. سقط قناع الود فجأة حين قال لي:

- مش هوصيك على سعاد.. سعاد دي بنتي الوحيدة.. لو كسرت قلبها هقبض روحك!

تجمدت حينها لبضع ثوان وساد الصمت.. ما هذه الجملة المرعبة؟ لماذا يختار أن يقول لي كلامًا مقبضًا مثل هذا في مناسبة مبهجة هكذا؟

تدخلت سعاد لتواري ذلك الجزء الموحش من وجه أبيها وقالت:

- انت هتبدأ تغير من دلوقتي ولا إيه يا بابي..

لم يرد بالطبع.. ظل يرمقني بنظرة مرعبة عكس كل ما رأيت منذ بداية حديثنا.. نظرة تحمل آلاف الوعود والتهديد والازدراء أحيانًا أخرى.

شعرت به يقول لي بنظراته القاسية» من أنت لكي تأتي هنا بكل وقاحة وتطلب يد ابنتي؟ ألا تعلم أنك حقير بالنسبة إلينا؟ هل تظن أن عملك كمصمم جرافيك أو حتى ككاتب مغمور قد يدعني أتركها لك؟ لن يدوم إعجابها بك طويلًا.. الأفضل لك أن تهرب فورًا»

كل هذا وأكثر شعرت به يريد أن يقوله لي لكنه يعمل ألف حساب لمشاعر سعاد.

هكذا انتهى الأمر في حينها لكني أدركت أني على شفا حفرة من التعاسة.. وأن سعاد مثلها مثل كل شيء بحياتي لن تأت على طبق من ذهب.. وإن كان المرء بحاجة لأميرة.. فعليه أن يحارب من أجلها.

كان ما أثار دهشتي هو أننا لم نتحدث أبدًا في الخطوة القادمة.. وكأنه يعتبرني مجرد مرحلة ما في حياة سعاد.. والأسوأ من ذلك أن يعتبر أن حياة سعاد برمتها مجرد مرحلة.. أسأل نفسي أحيانًا ماذا لو كان أمامي فقط ٢٤ ساعة وبعدها سأموت.. ماذا قد أفعل؟!.. هل سأجتمع بمن أحبهم جميعًا في حفل وداع مؤثر؟!.. هل سأقضي آخر ساعاتي وأنا أطلب من الله أن يسامحني على سنوات غفلتي ورحيلي؟!.. هل أنا جاهز لتلك المقابلة؟!.. وبم سأبرر لأمي عقد ونصف من الغياب؟!.. هل ستكون جنازتي محط اهتمام.. هل ثمة أحد في العالم سوف يفتقدني حقًا؟!.. هل سيسدد الجميع فواتير الحب المؤجلة وسيكون عزائي حافلًا بالنحيب؟!..هل ستفتقدني الأماكن وقطط السلالم؟!.. هل سيُهجر الكارافان ليصبح مجرد سيارة خردة واسعة؟!

هل سأجد من يتذكرني بعد عشر سنوات؟!.. بعد خمس؟!.. بعد عام واحد؟!.. بعد شهرٍ حتى.. إن الإنسان يمر سنويًا بذكرى وفاته دون أن يعلم.. يا له من شيء مرعب.. هل سأجد من يضع صورة لي محل صورته الشخصية على فيسبوك؟!.. هل سيشكل كل ذلك فرقًا في الأساس؟!.. ربما أفقد ذاكرتي بكل ما تحمله بعد عبوري للجهة الأخرى!.. ربما لا.. نحن نفتقد من رحلوا بالتأكيد ولكن هل الشعور متبادل؟!.. هل تفتقدنا أمي؟!.. هل ترانا حقًا؟!.. هل تزورنا في هيئة تلك الفراشة الذهبية كما أخبرتني مها حين كنا صغارًا؟!.. لن أجد في النهاية ردًا من أحد.. وليس بوسعي سوى أن أتعامل مع كل لحظة على أنها الأخيرة.. وأن أودع كل من أراه.. فالموت لا يفرق بين مسن وشاب وبين مريض ومعافى.. كلنا على المحك.. أنا أدرك تمامًا قيمة الموت وحكمة وجوده.. فلولاه لما كانت للحياة قيمة.. ولولا الظلام لما أدركنا أهمية النور.. ولولا الحزن ما بحثنا عن السعادة ولا استسغنا الأيام الحلوة.

لولا الفقد لما شعرت بتأثير سعاد على حياتي.. فالحمد لله الذي خلق كل شيء ونقيضه لندرك قيمة الأشياء ونتدبر حكمة الله فيها.. ونتيقن أن كل شيء سيكون بخير في النهاية.. وأن لم يكن.. فتلك لم تكن النهاية حقًا!

خرجت في النهاية من تلك الزيارة الغريبة وقلت لنفسي وأنا أودع سعاد: «اللهم إني أحاول.. فأعنّي»

* * *

- ٩ -

(تلك هي الحياة)

استيقظت فزعًا لأجد «مها» بجانبي تتمتم:

«بسم الله الرحمن الرحيم.. مالك يا يونس»

لم أفهم.. كنت أستفيق بصعوبة وبعد أن استجمعت ما الذي يحدث وأين أنا قلت لمها:

- مالك.. في إيه؟

- انت اللي مالك يا حبيبي؟ عمال تصرخ وانت نايم وتشهق كأنك بتغرق.. اللهم اجعله خير

أدركت أني كنت أحلم.. كنت أحلم بكابوس بشع.. رددت عليها وأنا أعتدل من رقدتي:

- كابوس.. كابوس وحش أوي.. قلبي مقبوض يا مها... قلبي مقبوض جدًّا.

كان الوضع غير مقلق أبدًا وكانت حالة مها قد بدأت في الاستقرار وزادت نسبة الأمل في شفائها وأخبرنا الطبيب أنها في غضون أسابيع قليلة ستكون على ما يُرام بنسبة كبيرة.

لكن كان هنالك شيء ما يعتصر قلبي باستمرار. ليالٍ كئيبة لا توصف.. طول النهار أكون مرتعبًا من أي شيء وكل شيء.. أشم رائحة الموت في كل مكان حولي.. وأرى أطياف الراحلين من أحبتي في كل زاوية أصوب نحوها وجهي.. كنت أعلم أن شيء ما سيحدث.. ككل مرة علمت وككل مرة حدث ما كنت أخشاه.

المشكلة الحقيقية كانت تكمن في أن مها ليست أختي فحسب.. ولم أعتبرها كذلك فقط أبدًا.. وإنما كانت بمثابة الشمعة التي أضاءت طريقي في أحلك المفارق وأشدها برودة.. وجودها يشعرني بالأمان.. أنا ممتن لكل شهيق وزفير يدخلان أو يخرجان من رئتيها.. وكل نظرة حنان من عينيها.

كل نبضة قلب.. أو كل ما يؤكد أنها لازالت على قيد الحياة.. وأنني لم أفقدها بعد مثلما فقدت كل من أحببتهم.. أكاد أقسم أن مها هي سبب بقائي حيًا إلى الآن.. لولاها لما تفتحت مسام جسدي لتسكنها سعاد.. لولاها لفقدت حواسي وإحساسي بكل ما هو حولي.. هي ذلك الخيط الرفيع الذي يربط بيني وبين ماهيتي ويعلقني بالحياة.. مها كانت آخر ورقات شجرة عائلتي التي اغتالها خريف الموت واستباح حصادها بلا رفق ولا شفقة.

كان الموت في حياتي تمامًا كالچوكر في حياة الرجل الوطواط. لن يقتلني.. ولن يرحمنى أيضًا.. وإنما يحب مشاهدتي أتجرع حسرات الفقد فحسب.. فقد راودني حلمًا ذات مرة بأنني تعرضت لحادث تسبب في كسرعظام ظهري واضطررت لاستكمال حياتي على مقعد متحركز.

ظللت عدة أشهر أتخيل شكل الحياة وأنا قعيد.. حتى أنني تدربت على فعل كل شيء دون قدميّ.. لم أتعرض لحادث في الواقع.. وكنت لا أزال واقفًا على قدمي.. لكنني بعدها فقدت أبي!

الإنسان يعيش مرة واحدة.. أدرك ذلك تمامًا.. ولكنه قد يموت على مراحل.. يقتله الخوف شيئًا فشيئًا.. سبق لي أن مت حين مات أبي فانطفأ داخلي مصباح الأمان.. صارت خيمتنا بلا وتد في وجه أعتى الرياح وأشدها قسوة.. ثم ذبلت أمي في ليلة وضحاها.. يوم واحد.. فقدان شخص واحد.. حدث واحد.. تسبب في انهيار كل شيء وانفرط العقد، فتناثرت حباته ولم يجتمع شملنا من بعدها.

لم أستطع أبدًا أن أطيل النظر في وجه أمي.. لم أستطع مواجهة حقيقة أن أبي قد مات.. فخرجت ولم أعد.. يا إلهي كم كنت أحمق.. كم أدركت بعد كل هذة المسافة التي قطعتها أنني في الطريق الخطأ.. تلك هي الحياة تمامًا.. كرقعة الشطرنج.. قد تعتقد أن كل شيء على ما يرام وأن الأمور تسير في صالحك.. ولكن بحركة واحدة خاطئة ينهار كل شيء.

تفقد كل قطعك الثمينة واحدة تلو الأخرى. لا أحد يستطيع الانتصار على الحياة.. الجمال يزول والحب يتنهي والسعادة لا تدوم.. الحقيقة الأساسية أنه لا شيء يدوم. لا أحد يدوم. كلها ليست سوى لحظات.. لحظات ليس علينا سوى أن نحياها بنهم ونشبع من كل أحبتنا.. قبل أن نستيقظ على أجراس الوصول إلى محطات الوداع.

تلك هي الحياة.. تظل جميلة إلى أن تدرك.. نعم إنها لعنة الإدراك.. تلك التي تجعلك تشعر بكل ما هو موجع.. وتجعلك تفطن للنهايات قبل أن تطأ بقدميك خط البداية.. ليست سوى مجرد أحداث تتكرر بنفس النمط ولكن باختلاف الفترات والأشخاص.

أخبرني أحد أصدقائي أنني أبدو كمن تجاوز الخمسين من عمري.. أنا لم أكبر ولكني أدركت.. أدركت أنه ليس هنالك ضوء في نهاية النفق.. لم يكن هنالك نفقًا أبدًا.. بل نحن من تصورنا أنها مجرد فترات ستمضي.. نحن من تشبثنا بآمال زائفة كي نستطيع التجاوز.. خرجنا من معارك كبرى.. ولكن بإصابات بليغة.. إصابات منها ما هو في صميم القلب وما هو في نسيج الروح.. هل هناك أحدٌ يستطيع التعبير حقًا عما يشعر به؟!.. هل تكفي نوبات الغضب.. هل يكفي أن تتعاطف معي بتفاعل ساذج علي الفيسبوك.. هل يمكن أن تحتضنني في رسالة نصية؟!

هل كل كلمات المواساة كانت كافية لإخماد نار حزن أمي بعد فقدان أبي.. هل كان التعويض المادي كافيًا لننجو من مخالب الزمن وقسوة الأيام.. لا شيء يُجدي.. كلها ليست إلا محاولات بائسة مثلها كمثل أم.. تضع الإناء فارغًا علي النار لينام أبناؤها في سلام وهم في انتظار العشاء.. بالطبع لم أرد كل هذا فقد كنت يومًا ما شخصًا حالمًا مفعمًا بالحماسة والشغف.. ولكني أدركت أن العمر أقصر من

أن أضيعه في الركض خلف اللاشيء وأن ذلك الطفل بداخلي لم يمت وإنما حل محله آخر.. لا تسعده ليالي العيد.. ولا الزينات ولا رائحة الشوارع قبل الشروق.. طفل لم يعد ينتظر سانتا كلوز.. لم تعد لدي أمنيات.. حتى وإن تمنيت أصبحت أمنياتي متعلقة بالآخرين.. أتمنى لمها الشفاء.. وأتمنى أن يظل قدري معلق بكفي سعاد الطيبيين للأبد.

لم أعد أسأل الله شيئًا لنفسي.. ليس زهدًا مني.. ولكن من تجرع مرارة الفقد مرة.. يستحيل أن تفجعه فاجعة أو تنال الحياة من قلبه.. الآن كل شيء يهون حتى الموت.. فما أريده علي الناحية الأخرى.. أكثر مما أريده على هذه الناحية.

أشعر أنني يومًا ما سأغلق عيني وأفتحها لأجد رأسي في كف أمي.. وأصابعها تداعب شعري وشفتاها تقبل جبيني.. أبتسم لها فتحتضن كل أوجاع سنيني.. أو يدق جرس الباب لأجد أبي قد عاد للتو حاملًا أكياس الفاكهة وعلب العصير.. ليس لدي صورة مع أبي.. وكل ما تبقى من صوره أصبح بحاجة إلي الترميم.. حيث لم تعد ملامحه واضحة.. أكاد أنساها.. ولكن أكثر ما أتذكره.. هو صوته.. فقد كان رخيم الصوت.. يكاد الدفء يخرج من بين شفتيه.. مبتهجًا طيلة الوقت.. حنونًا.. عذب العتاب.. شدّاد إذا ما استنصره أحدًا.. نبيلًا يتحلى بكل معاني الإنسانية والرقي.. كان نعم الأب.. ولكن ليس للموت عزيز.. لن أنسى وجه جدي وهو يقول لي:

«أبوك مات عشان غالي.. الموت بيختار صح «

نعم، تعلمت أن الموت انتقائي للغاية.. كبستاني يقطف الورد.. أجود الورد.. وذلك لإن الطيبين حقًا ليس لهم مكان في ذلك العالم وهذا أكثر ما كان يخيفني على مها.. رغم نتائج تحاليلها المطمئنة.. كنت أعلم أنها أجمل بكثير من البقاء في عالم كهذا.. لم يكن تشاؤمًا وإنما إدراك حزين للواقع المرير.. ولكني حتى لو توقعت الأسوأ.. فإن الحياة تفاجئني بأن هنالك ما هو أسوأ بكثيرٍ مما توقعت.. للأسف الشديد.. تلك هي الحياة.

كان يوم كئيب تركت فيه نفسي للظنون واليأس والاكتئاب، ولم أدر أكان هذا بسبب زياراتي السابقة لوالد سعاد. أم أن الشخص الحزين بداخلي انتصر على الشخص الاخر الذي يحاول أن ينتزع السعادة بأي طريقة من بين فك الحياة الشرس والقاسي.

في نهاية اليوم وجدتني أقول مرة أخرى «اللهم إني أحاول.. فأعنِّي».

* * *

(من كُتر حلاوة الأيام)

قد أكون من هواة الطرب.. وقد أكون من المتعصبين لكوكب الشرق.. وقد أكون من دراويش السيدة فيروز.. وممن أفنوا عمرهم في البحث عن التسجيلات النادرة لعبدالحليم حافظ ومحمد فوزي.. لكن تبقى «وردة» هي الأقرب لقلبي.

التجربة الأكمل والأصدق من وجهة نظري.. حيث تشعرك أن كل حرف تغنيه قد صنع بحب شديد.. ربما أحبها الكثير مثلما أحبها بليغ حمدي.. ربما آمن بها سيد مكاوي.. فأنا لا أعتقد أن كل هذا الفن كان من أجل النجاح والشهرة فقط.. أنا متأكد أن كل ما حدث حقيقي.. وأن كل ما غنته ورده لم يكن سوى توثيق لعلاقتها ببليغ حمدي وحياتها في مصر.. ومن شدة تأثري بالأمر كان شغلي الشاغل في إحدى الفترات هو معرفة كيف بدأت علاقة وردة ببليغ.. وكنت أعلم أن الأمر بدأ قبل أن يبدأ فعلًا.. وأن الأرواح تلاقت في مكان ما قبل أن تتصافح الأيدي وتتعانق الوجوه.

يبقى الكوبلية الأقرب لقلبي في كل ما غنت وردة هو:

«من كتر حلاوة الأيام ونعيمي وسعدي بلياليك

مش بحسب فات منهم كام ولا بقدر أفكر غير فيك»

هكذا كنت أشعر تمامًا حين أحببت سعاد.. شعرت بأن كل شيء أصبح حقيقي.. شعرت أني أرى كل شيء للمرة الأولى.. الأماكن والشوارع والفتارين الزجاجية التي تعكس وجهي الباسم كلما توقفت لأرى فستان كنت أشعر بأني أريد إهدائه لسعاد.. أشعر أنني أريد احتضان كل شيء.. أن أعوض نفسي عن ما فعلته بنفسي على مدار كل تلك السنوات الماضية.. أنا لم أحب سعاد فقط.. وإنما أحببت نفسي معها.. اكتشفت معها النسخة الأفضل من نفسي.. كانت تلك الفترة هي الأسعد والأجمل على الإطلاق.. رغم خوفي الدائم من قسوة الأيام.

كيف لسعاد أن تكون بكل هذا اللطف؟

كيف لها أن تبتسم في وجه جلسات الكيماوي.. وأن تواجه الألم بكل تلك البراءة والقوة؟

كانت تجعلني أخجل من نفسي.. فكيف لي أن أكتئب وأنا في حياتي كل هذا الأمل؟!.. كانت تضع يدها تمامًا على جرحي القديم.. وتدرك أنها إذا أرادت إسعادي حقًا عليها إصلاح قلبي أولًا.. شعرنا معًا أننا مجرد طفلين يكتشفان العالم للمرة الأولى.. وبدأنا في صنع قوائم من الأمنيات المؤجلة.. واستثمار كل دقيقة قادمة وكأنها مسابقة يجتهد فيها كلٍ منا لإسعاد الآخر .

لطالما كانت ترى سعاد الحياة من برجٍ عالٍ ولطالما رأيتها أنا من نافذة الكارافان.. كان لابد لي أن أريها الحياة كما لم تراها من قبل.. وأن أحقق لها كل تلك الأمنيات التي اغتالها الخوف.. أن أجعلها تحب حياتها معى قبل أن تحبني.

كانت سعاد في منتهى الطفولة.. أحلامها بسيطة للغاية.. وكنت لا أدخر جهدًا في أن أحقق لها تلك الأمنيات التي لا طالما أجلتها.. طلبت منها بالفعل أن تعد لي قائمة بكل ما تتمناه مهما كان.. ووعدتها أني سأفعل المستحيل من أجل أن أحقق لها كل ما في تلك القائمة.

كنا نجلس سويًّا أشرب القهوة وتشرب هي الشوكولاته الساخنة فأعطيتها ورقة وقلمًا وقلت لها:

- يالا اكتبي كل اللي نفسك فيه

نظرت مبتسمة وقالت دون أن تأخذ الورقة من يدي:

- أنا عاوزاك انت.. مش عاوزه حاجة تاني من الدنيا.

- لا عاوزه حاجات كتير.. وانتي أخدتيني خلاص.. يالا اكتبي نفسك في إيه تاني.

باستسلام بريء أخذت مني الورقة وأخذت تكتب دون أن تفكر.. وكأنها تحفظ قائمة أمنياتها عن ظهر قلب.. توقعت أنها ستأخذ وقتا للتفكير.. لكنها فاجأتني بأن دونت أمنياتها على الورقة في أقل من دقيقتين.

أعدت لي قائمة كتبت على رأسها.. أجمل أيام حياتي وبدأت في ترقيم الأمنيات فجاءات كالتالي:

١ - أشوف شروق الشمس قدام بحر إسكندرية.

٢ - آكل فول من على عربية الساعة ٧ الصبح.

٣ - عايزه اتفرج معاك على فيلم جميل.

٤ - نفسي أروح أسوان.. وأركب قطر النوم زي اللي كان في فيلم غرام في الكرنك.

٥ - نروح حفلة لطارق العربي.

٦ - ناكل سوشي سوا.

٧ - احضر حفلة هيلوجرام لعبدالحليم حافظ.

٨ ـ نقفل موبايلاتنا ٣ أيام ونروح دهب.

٩ – أروح بيت الفراشات اللي في سنغافورة.

١٠ – (...............................)

بينما تركت فراغ أمام الأمنية العاشرة..

قد يظن البعض أننا لابد أن تتشابه طبعانا لنقع في الحب.. عن نفسي لا أظن ذلك.. فلو كانت سعاد تشبهني لما وقعت في حبها مطلقًا.. ولما عرفتني على عالم جديد لم تطأه قدميّ من قبل.. تلك البراءة الممتزجة بالجنون طول الوقت..

تعلم متى تكون طفلة وتعلم أيضًا متى تكون أنثى على أكمل وجه.. لم أكن من هواة الأفلام الهندية.. ظننت أن جميعها كتلك التي يتطاير بها الممثلون.. أو نجد فيها رجل العصابات قد أفرغ خرنة ذخيرة كاملة في صدر البطل الذي لا زال على قدميه.. وقد كان الأمر مضحكًا في رأيي.. فأنا لست من محبذي المبالغة في أي شيء.

لكن في الأفلام الهندية.. حتى صباح الخير تُقال بشكل مبالغ فيه.. كان الجميع أميتاب باتشان بالنسبة لي.. لم أكن أعرف حتى من هو شاروخان ولكن سعاد غيرت رأيي.. عرفتني على الفيلم الذي صار بعدها الأقرب إلى قلبي فيلم «Barfi».

أدهشتني قصة الفيلم.. وأعجبتني الموسيقى كثيرًا.. ضحكت وبكيت.. كانت ثلاث ساعات كاملة من المشاعر.. ومن ثم وجدتها تهوى السنيما الكورية.. يا إلهي كنت أظنها تمزح.. ولكن للأسف كانت تتحدث بجدية.. وللمرة الثانية وجدتها محقة.. فقد تعرفت على عالم من الدراما والكوميديا لم أشهد مثله في حياتي. بعدها تبادلنا الموسيقى.

كانت تحدثني عن كل شيء بأغنية.. الحمد لله إننا لسنا من هواة التجديد في الموسيقي.. وأن حكايتنا بدأت على أنغام حليم ووردة.. أخبرتني ذات مرة بعد أن استمعت إلى أغانيَّ التي كتبتها لبعض الفرق الجديدة وأعجبتها الموسيقى.. أنها على استعداد لأن تحب كل ما هو جميل حتى لو لم يكن من ذائقتها في الاستماع.

كانت تضحك وتقول لي أنها تهتم بالكلمات كثيرًا.. وأنها أساس كل أغنية مهمة.. وأخبرتها أيضًا أني أحيانًا أستمع إلى مريم صالح.. قد يبدو صوتها غريبًا للوهلة الأولى.. لكن حين تعتاد عليه.. تصبح أسيرًا لهذا الغضب والضجيج في صوتها.. وأني استمعت لبعض أغاني الفرق الحديثة من باب الفضول.. والحق يقال إنهم أصحاب مواهب حقيقية.. لكن عن نفسي أنا لا أتفق مع فكرة أن يتحول الغناء لصراع.. وكذلك لم تعجبني أبدًا النرجسية في كل كلمات الأغاني التي تُغني بها بعض هذه الفرق.. لكن ربما أكون أنا من فاتني قطار السمع.. ربما يتغير رأيي بالوقت لم لا؟!..

تلك القائمة كانت بمثابة تحدٍ أمامي.. لأثبت لسعاد أني أحبها قولًا وفعلًا وأني على قدر المسئولية فعلًا.. ومن ثم رتبت كل أموري مع مها.. بحيث ألا أتركها بمفردها أثناء تواجدي مع سعاد واتصلت بسعاد وقلت لها:

- اعملي حسابك إننا هنروح إسكندرية الأسبوع الجاي.. وهنبتدي نعلم صح قدام كل سطر في القايمة دي لحد ما أحلامك كلها تتحقق.. م الآخر كده أحلام سيادتك أوامر.

* * *

قبل أي شيء كان ينبغي علي أخذ تصريح سفر ليس من جهة حكومية بالطبع وإنما من والد سعاد الذي لا يتعامل مع تلك الأمور ببساطة.. فلطالما أخبرتني بشعورها الدائم أنها فراشة بداخل برطمان.. وأن الخوف جعل والدها يقع في شرك الحذر.. وأن ذلك الحذر كان كفيلًا بأن يجعلها تقبع في ذلك البرطمان لأكثر من ثلث حياتها.. الثلث الأهم والأنسب للخروج عن النص وفعل كل ما هو سعيد وغير تقليدي وعشوائي وغير مبرر..

ذكرتني كلمات سعاد بتلك القصة التي رأى فيها أحد الملوك ابنته وهي تموت بسبب لدغة ثعبان في السادسة عشر من عمرها وبجانبها ملاحة طعام.. فما كان منه إلا أنه بنى لها برجًا حصينًا عليه حراسة مشددة.. وكلف كبير الخدم بأن يذهب إليها بالطعام يوميًا.. إلي أن أتمت عامها السادس عشر.. وأثناء ذهاب كبير الخدم بالطعام كما اعتاد أن يفعل تذكر أنه قد نسي الملاحة فترك الطعام بالحديقة وعاد ليحضرها بينما تسلل الثعبان إلى أحد الأواني.. وحدث ما حدث.. وهذا ما سيحدث إلي أبد الآبدين.. فالحذر لا يمنع القدر.. وما كان من الملك إلا أنه منع ابنته عن الحياة.. ولم يمنع الموت عنها.

اتصلت بوالد سعاد.. أخبرته بقائمة أحلامها وطلبت منه أن يبقى الأمر سرًا بيننا.. وأن يستمع إليَّ بقلبه.. أن يثق بي ويمنحني فرصة إسعادها.. أن يجرب أثري على حياتها ويمنحني فرصة لإصلاح ما عجز الكيماوي عن فعله كاملًا.

كان كلانا يؤمن أن مريض السرطان لا يخسر المعركة بسبب ضعف جسده فقط.. وإنما إذا تهاوت روحه تهاوى كل شيء.. وقد كنت أطلب ذلك بإلحاح شديد حتى ظننت أنه سيغلق الهاتف في وجهي.. لكنه وافق أخيرًا.

اشترط عليَّ الحفاظ على سلامتها.. وحينها قاطعته قائلًا «أيوه عارف.. وإلا هتقبض روحي».. فضحك وقال لي.. «مش عارف وافقتك إزاي بس خليني نشوف»

أخبرت سعاد بموافقته فظنت أني أمزح في البداية.. إلى أن أقسمت لها فقالت:

- انت عملتله إيه أنا بتحايل عليه بقالي خمس سنين أخرج.. أسافر.. أروح وآجي وأشم هوا.. وانت جيت أكلت بعقله حلاوة في خمس دقايق.. هقولك إيه بس خدت قلبي وضحكت على أبويا.. انت كنت فين السنين اللي فاتت دي كلها؟

- عشان تعرفي إنك من هنا وجاي ما بقيتيش لوحدك أبدًا.

* * *

الآن جاءت الفرصة المناسبة تمامًا لأن أبدأ عمري من جديد.. أن أعوض نفسي عن كل ما مضى وأنا أكشف لسعاد ما هي الحياة.. الحياة كشعور حقيقي.. السعادة لا المتعة.. الأمل لا التصبر.. الشفاء لا محاولة البقاء على قيد الحياة فحسب.

كنت مصرًا على الذهاب في قطار.. ثمة شيء ما لا أجد له تفسيرًا في قطار الإسكندرية.. بمجرد أن تقع عيني على تلك التذاكر أشعر ببهجة وأستعيد جزءًا ما من طفولتي كنت قد فقدته في زحام يونس الكبير.

اعتدت النزول في محطة سيدي جابر.. والتي تربطني بها ذكريات دافئة.. وليس هنالك أجمل من أن تذهب إلى المكان الذي تحبه مع من تحب.. إسكندرية هي عاصمة المحبين تستطيع أن تمنحك سعادة أهل الأرض وتستطيع أن تمنحك شقاءهم كذلك.. فالأمر كله متعلق بسؤال أزلي.. هل جئت لتصنع ذكريات أم جئت لتتذكر؟!.. هل جئت مع نصفك الآخر.. أم جئت مجرد نصف مبتور الفؤاد؟!

إسكندرية ساحرة.. برائحة اليود الذي يقتات على عمائرها.. ويهب لسكانها الحياة.. الإسكندرية هي هبة البحر.. بداية من «بحري» إلى «ما بعد طوسون».. تجد نفسك في دائرة العشق والهوى.. تجد لك صورة من رحلة المدرسة في قلعة قايتباي بجانب عقد صنع من صدف البحر.. تجد نفسك في ضواحي برشلونة إذا دخلت شارع فؤاد.. الرمل.. محرم بيه.. كامب شيزار.. سوتر.. سيدي جابر.. ميامي.. العصافرة.. رشدي.. المعمورة.. خالد بن الوليد، كلها مسببات سعادة، كلها جرعات «دوبامين» مفرطة.. ذلك التاكسي ذو اللونين الأصفر والأسود.. وحتى اللكنة تبقى هي الأجمل على الإطلاق حين تسمعهم يقولون: .. جني.. هريسة.. مستيكة.. كما تعجبني كثيرًا طريقتهم وهم يقولون «بنحبوك».. حيث يقولها شخص واحد لكن تشعر أنك محبوب من جماعة بأكملها..من حقهم طبعًا يتعاملون على أنهم شعب الله المختار.. فأنا أحسد في الحقيقة كل من ولد في الإسكندرية.

الآن قد بدأت رحلتنا الحقيقية.. فقد وصلنا للفندق.. ولم نصعد حتى للغرف.. وإنما تركنا أمتعتنا في ردهة الفندق وبدأنا يومنا الأول في فاتنة الإسكندر الأكبر.

قلت لسعاد:

- اللي مجاش معايا إسكندرية يبقي لسة مجاش.

ردت علي:

- على كده بقى أنا من حظي إني أول مرة آجي يبقي معاك؟!

- أنا اللي من حظي إنك معايا والله وهنا في إسكندرية.. أنا أحلامي كانت أبسط من كدة بكتير!.. المهم إنتي زمانك جوعتي.. تعالي ننزل حلقة السمك ننقي أكلة سمك حلوة كدة تغير فكرتك عن السمك اللي أكلتيه طول حياتك.

- وليه ننقي.. تعالى نروح أي مطعم سمك وخلاص!

ابتسمت من براءتها الشديدة، قلت لها مفسرًا:

- مش بقولك مجيتيش إسكندرية!.. السمك اللي بجد مش في المحلات.. عايزة تاكلي سمك تنزلي تنقيه ويتعمل في السوق قدامك.. وبعدين بقولك إيه سبيلي نفسك خالص.. اعتبريني سواق أوبر يا ستي وفي الآخر إديني تقييم للرحلة.

كان سوق السمك مزدحمًا كعادته يعج بالبائعين الذين يبادرون بعرض أسعارهم.. وكانت سعاد منبهرة بالأجواء.. مبتسمة طوال الوقت ابتسامة طفلة تتذوق طعم الحياة للمرة الأولى!

سألتها قائلًا:

- تاكلي بربون؟!

- يع!!!.. إيه ده؟! حد ياكل حاجة اسمها "بربون"؟

- ده سمك حلو أوي.. سمك ابن ناس زيك كدة مبياكلش غير جمبري.. عشان كده طعمه جمبري

- الله.. ده يبقى حلو ده.. ماشي عايزه ادوقه

- اوزن لنا نص كيلو بربون وربع بطارخ.. وكيلو جمبري جامبو وتشكيلة دنيس وكليماري.. وخلي نص بانيه ونص يتعمل طاجن مع البطارخ واعمل تشكيلة بردو جمبري صغير عشان الرز

- ايه اصبر بس شوية احنا هناكل كل ده؟!

- طب بس ياريته يكفي!

أنهيت الطلب ثم جلسنا في انتظار تحضير الطعام بينما أتى أحد الصنايعية العاملين بالمحل ليضيفنا

- تشربو إيه بقى يا أستاذ؟!

- قهوة مانو

- والأستاذة؟!

- عندك فرباتشينو شوكلت

رد الرجل سائلًا بتعجب:

- لامؤخذه حضرتك بتقولي ايه؟!!

تدخلت مسرعًا وأنا أضحك:

- شاي.. شاي بحليب!

ذهب العامل ليحضر الطلبات بينما أخذت أضحك بشدة وسط استغراب سعاد مما حدث..أخبرتها أننا لسنا في ستارباكس وأن تلك التعويذة التي ألقتها منذ قليل لن تستطيع مقاومة سحر وجاذبية الشاي بحليب..

* * *

بعدما انتهت تحضيرات وجبة السمك.. اقترحت عليها الذهاب لبحري.. كي نأكل ونستمتع بما تبقى من ضوء النهار أمام البحر.. وأعرفها بنفسي على اختراع الشيخ وفيق الأعظم ألا وهو «رز بلبن بالأيس كريم والمكسرات».. فكلما ذهبت تشعر أن الإسكندرية برمتها هناك.. وربما تجلس ساعة كاملة في انتظار دورك.. كما أن الأمر لا يشكل فرقًا إن جئت في الصيف أو في الشتاء، نهارًا، مساءًا.. ستجد نفسك أمام حشد مصطف بلا نهاية في انتظار ذلك الاختراع العجيب.

كما اعتدت كنت أجلس في إحدى الشواطئ الخاصة المقابلة لمحل الشيخ وفيق.. ويتكفل أحد العاملين بالذهاب وإحضار طلباتنا من هناك بينما نقضى وقتنا أمام البحر.. وبالفعل جلست مع سعاد على طاولة بلاستيكية تحت شمسية من تلك الشماسي الخشبية العتيقة.. خلعنا أحذيتنا التي غطاها رمل البحر.. وبدأ العاملين يساعدوننا في فرش الطعام وإحضار المشروبات.. فقد كان الجو لطيفًا جدًا لدرجة لا تصدق.. قالت سعاد إنها وكأنها تتذوق السمك للمرة الأولى في حياتها.. أعجبها البربون كثيرًا كما توقعت.. لكنها وقعت في غرام طاجن البطارخ والرز بالجمبري.. حتى بدأ الطعام ليكفينا بالكاد.فدخلنا في نوبة ضحك هستيرية من فرط السعادة والإحساس بالراحة.. لم تكن متعة لحظية فقط.. لا بل سعادة حقيقية.. سعادة سيبقى أثرها في ذاكرتي للأبد.

حلت سُعاد عقدة شعرها.. وانطلقت آخذةً ما تبقى من عقلي ووقفت أمام البحر.. تستكين بدفئ انتهاء الموج عند قدميها.. ويدغدغها الرمل.. ذلك الشعور البسيط جدًا المبهج جدًا. ذلك الشعور الذي لا يضاهيه شعور.. الشعور بالحرية.. وفي تلك اللحظة وجدتها تضحك وتقول «الفراشة خرجت م البرطمان يا يونس».. «الفراشة خرجت م البرطمان»!!

لم أرها سعيدة هكذا في حياتي.. فقبلت كفيها.. وقلت لها أحبك وسألتها:

- عهد مين ده؟!

ردت سائلة بتعجب:

- عهد مين؟!

قلت ضاحكًا:

- مفروض تقولي عهد الله.

فضحكت وقالت

- والمفروض أعرف منين؟!

- هي بتتقال كدة!

- والله بجد؟ تخيل إن عمر ما حد عاهدني على حاجة؟ انت أول حد غير بابا أحس إنه بيتعب عشان يسعدني.. بتخاف علي وبتخاف على زعلي وبتحاول ترضيني حتي لو على حساب نفسك.. أنا لو هاشكر السرطان على حاجه هاشكره علشان كان سبب إننا نتقابل. وبعدين أنا مش واخده ع الدلع ده كله أوعى أكون هموت ومخبيين عليَّ.

- بلاش سيرة الموت تاني يا سعاد. أرجوكي بلاش.. مش في إسكندرية عالأقل.

وكنت أحاول الهرب من مشاعر الحزن التي انتابتني منذ مكالمة شريف قبل دخولنا الشاطىء.. فقد لمحت في صوته نبرة خوف وقلق.. كنت أعلم أن هذا لا يعني سوى أن مها ليست على ما يرام.. طلبت منه أن أعود إليه لكنه أصر ألا اقطع هذه الإجازة البسيطة وأنه بجوار مها ولن يتركها.. أنهيت المكالمة معه وأنا أشعر أنه يكذب.

الآن وبحديث سعاد عن الموت مرة أخرى شعرت أن الحياة تستكثر علي ولو ٢٤ ساعة فقط من السعادة.. قاطعت شرودي سعاد قائلة:

- عارف؟!.. أنا بقيت خايفة أموت يا يونس.. مكنتش بخاف بس وجودك في حياتي على قد ما طمّني على قد ما خلاني بقيت خايفة أموت بس برجع أقول أكيد ربنا مخلانيش أمشي الطريق ده كله عشان أرجع في النص.

- ليه بس السيرة دي دلوقتي.. طب تعالي يلا ناكل الرز بلبن بالأيس كريم قبل ما يسيح.

عدنا لنجلس معًا بينما بدأت في تذوق الرز بلبن فتغيرت معالم وجهها وقالت:

- الله.. ده حلو أوي بجد.. أنا عمري ما أكلت حاجة بالجمال ده.. الشيخ وفيق دخل قلبي خلاص -

- - طبعًا وانتي فاكره إني هأكلك أي حاجة كده.. إنتي جاية معايا عشان تدلعى.. شويه كده وهنقوم نتمشى ع الكورنيش عشان تشوفي إسكندرية اللي بجد.

خرجنا لنسير معًا على الكورنيش.. وأخذنا الكلام إلى أن غربت الشمس.. ووجدنا أنفسنا عند نفق جليم.. نسينا أنفسنا وتمشينا من بحرى إلى نفق جليم.. قرابة الساعتين ونصف مضوا وكأنهم خمس دقائق.. قلت لها الآن وقت تحقيق الأمنية الثانية «نشوف فيلم سوا»..

ذهبنا إلي سنيما سان ستيفانو كانوا يعرضون فيلم hotel transylvania.. الجزء الثاني.. وكان الفيلم يبدأ بعُرس البطلين من الجزء السابق.. ضحكنا كثيرًا وقلنا ربما هي علامة على رضاء والدها عليَّ تمامًا كما كان كونت دراكولا متحفظًا على ابنته في أحداث الجزء الأول وها هو الآن يشهد حفل زفافها دون أن يحرق الأرض بمن عليها.

كانت أوقات رائعة.. وكان يومًا بطول عمري.. لن أبالغ إن قلت إنه كان أسعد أيام حياتي.. ذهبنا بعدها إلى الفندق وطلبت منها أن تستعد في تمام الرابعة فجرًا.. سأمر عليها لأصطحبها لتحقيق الأمنية الثالثة ونشاهد شروق الشمس أمام البحر.. وذهبت بالفعل لاصطحابها وجلسنا أمام البحر في انتظار خروج الشمس من مكمنها.. مالت برأسها على كتفي وقالت:

- أنا لو مت دلوقتي هموت وأنا مبسوطة عشان بس قابلتلك وعشت معاك يومين حلوين.

حاولت تغيير الموضوع ساخرًا:

- انتي لو مُتي دلوقتي أبوكي هيقبض روحي.. وبعدين إحنا مش مسافرين ومطبقين وقاعدين في الشارع لحد دلوقتي عشان تقوليلي لو مُت.. فين بهجة سعاد بتاعة زمان.. أنا بهتت عليكي ولا إيه؟!

- الظاهر كدة.

- طب يلا عشان هنروح ناكل على أحسن عربية فول في العالم «عم وحيد».

كان عم وحيد رفيق سنواتي السابقة في الإسكندرية.. فقد اعتدت أن أبيت بالكارافان في ميامي شارع ٤٥.. وكان عم وحيد هو منقذى في نوبات الجوع المتأخرة.. فهو يبدأ عمله بالشارع من الساعة الرابعة فجرًا إلى التاسعة صباحًا.

عندما رآنا ابتسم وقال:

- يا أهلا بالغايب.. أنا قولت انت نسيت عمك وحيد يا يونس باشا.. مشوفناكش من ياما.

- ليك واحشة والله يا عم وحيد.. مش هوصيك بقى.. الست هانم أول مره تاكل على عربية فول.. عايزها تحلف بالمرة دي.

- بس كدة عنيا يا سيد الناس.. ده انت الغالي.

كانت سعاد في غاية السعادة.. ظلت تنظر لي بإعجاب شديد وتحاول مجاراتي وتقليدي وتمسك برغيفي العيش البلدي وتفركهما في بعضهما البعض مقلدة ما أفعله.. تضع أقراص الطعمية الساخنة مع قطع الطماطم المخللة في نص رغيف وتتبعها برشفة من ماء السلطة وكأنها لم تأكل منذ سنوات..

لم أرها مقبلة على تجربة كل شيء هكذا أبدًا.. كانت مستمتعة بكل برهة.. مسمتعة بشكل فاجأني أنا بشكل شخصي. وبعد أن انتهينا شكرتني فتعجبت وقلت لها:

- بتشكريني على إيه.. أنا عايش عشان إنتي تبقي مبسوطة!

- حتي لو.. لازم أقولك شكرًا.. شكرًا على كل حاجة التقدير حلو وبيخلي اللي عايز يعمل حلو يعمل الأحلى وأنا مش هنسى اليوم ده أبدًا إنت خليتني أعيش أسعد يوم في حياتي

* * *

(زي الهوا!)

في الحياة لا شيء مجاني.. إذا حصل أحد على شيء تأكد أنه دفع ثمنه مسبقًا.. فالحياة لا تقبل الشيكات حتى.. يقولون «مفيش حلاوة من غير نار».. ويقولون أيضًا «No pain no gain».. هذا هو القانون الذي لا يتحايل أحد عليه.. وقد كنت أعلم أن ذلك الحلم الجميل لن يدوم.. كنت أنتظر الصفعة التي ستجعلني أرتطم بأرض الواقع بين اللحظة والأخرى.. كنت أعلم أن لذلك نهاية.. ونهاية مأساوية أيضًا.. فهذا ليس بجديد على حياتي..

كان اليوم يومًا عاديًا.. ثم لم يعد كذلك أبدًا.. فقد أمضيت نصفه الأول في تحقيق الأمنية الرابعة.. وكنا في واحدة من أروع حفلات طارق العربي طرقان.. نغني بحماس سيمبا قادم سيمبا جاء.. ونردد موكا موكا وهزيم الرعد.. كانت لحظات استثنائية.. لطالما تمنيت أن أحظى بمثلها طيلة حياتي.. وقد كانت تلك هي الأمنية الوحيدة المشتركة بيني وبين سعاد.. وقد ظللت قرابة الشهرين حتى تمكنت من حجز التذاكر.. حتى عدنا طفلين يسترجعان شريط طفولتهما الدافئة.. وكأننا دخلنا في إحدى الآلات الزمنية التي أعادتنا على الفور للتسعينيات.. وهكذا يباغت القدر البشر دومًا.. هكذا كان ولازال يسبق الجميع بخطوة.. عدت للمنزل بأحلامي وبطاقة اليوم الذي لا ينسى لأجد مها قد رحلت.. فارقت الحياة.. هكذا فقط.

لم تكن حياتي أبدًا من النوعية التي تمرض فيها أخت البطل وتشفى!.. كنت أعلم ذلك.. حتى الوداع لم يكن متوقعًا أو ممهدًا له ولكن هذا ما حدث.. ماتت دون أن يتسنى لي سماع كلماتها الأخيرة أو أن أقبلها بين عينيها الطيبتين.. مثل ما حدث مع أمي تماما.

كانت هناك، ثم رحلت فجأة.

ماتت مها دون جرس إنذار.. رحلت دون أن توقظني من سُبات الحب لأقول وداعًا للمرة الأخيرة.. رحلت نوارة قلبي.. ابنتي وأمي.. صديقة عمري والسبب الأهم لبقائي على قيد الحياة.. لم يكن الأمر سهلًا أبدًا.. لكن سبحان من يُنزل السكينة في قلوب عبادة رأفة ورحمة.. كنت متماسكًا جدًا.. اقف في عزائها بجانب شريف الذي كاد أن يفقد عقله لولا لطف الله بكلينا.. لن أنسى تلك اللحظة التي أهلت فيها التراب عليها.. وعلى قلبي الذي بداخلها.. على ذكرياتي.. على أملي.. على آخر ما تبقى لي من رائحة أمي ووجه أبي.. كنت أعلم أن رحيلها آت لا محالة.. لكن لم يخفف ذلك وطأة الحزن فوق قلبي.. لم ينقذني ذلك من الشعور بالتقصير ولا الندم!.. الموت لا يتوان عن خطف أحبتي.. لم لا يخطفني أنا؟!.. لمذا كُتب علي أن أودع كل أحبتي بالموت.. وأن تمتلأ خزائن ذكرياتي بالندم على كل دقيقة مهدرة.

تماسكت.. حتى مضت ثلاث أشهر كاملة لم تذرف عيني دمعة واحدة.. لم أجب آلاف المكالمات الفائته من سعاد.. مئات الرسائل.. عشرات المحاولات للقائي دون جدوى.. انطويت على نفسي.. حتى لم تستطع سعاد ولا غيرها إخراجي من تلك القوقعة التي ابتلعتني.

إن لم تستطع سعاد أرجاعي.. فلن يستطيع أحد بالطبع.. هكذا ودون تنويه ابتعدت.. أعطيتها ظهري وبدأت في الركض بأقصى سرعة ممكنة.. لا أدري إلى أين.. لكن كان هدفي أن أبتعد.. لن أتحمل خسارة أخرى.. لن أتحمل أن أفقدها بنفس الطريقة.. ربما لو ابتعدت عنها تنتصر في معركتها مع السرطان لكن في وجودي.. ومع كل ما يحدث لي.. ومع شبح الموت الذي يسير بجانبي في كل مكان.. ستكون النهاية مأساوية جدًا.. قررت أن أبتعد حفاظًا عليها.

مرت ستة أشهر كاملة من الغياب.. لم يطرق بابي غيرها وغير شريف الذي أكل قلبه الحزن على مها.. طلبت منه ألا يزورني مرة أخرى.. فوجوده يذكرني بها ويجدد حزني عليها.. يذكرني بالفقد وبالعجز.

طلبت منه أن يتركني في وحدتي.. وطلبت من عم حكم البواب أن يتفقدني كل بضعة أيام.. ليرى إن كنت على قد الحياة أم قتلني الحزن.. كانت الحياة في عيني غيمة سوداء لا تزول.. كنت أنتظر موتي في كل ليلة.. لولا أن انتحاري قد يمنعني من رؤيتها في الناحية الأخرى ما ترددت لحظة في فض ذلك النزاع وكنت قد قتلت نفسي لأريحها من بشاعة هذا العالم.. كانت تلك حالتي قبل أن تحدث تلك الزيارة التي غيرت كل شيء.

* * *

دق جرس بابي على غير عادته.. اعتقدت في البداية أنه شريف.. فسعاد يأست من يأسي ولم تعد تزورني منذ أشهر.. ربما فقدت الأمل في عودتي.. فتحت الباب لأجد والد سعاد أمام بابي.. تفاجأت وارتعب قلبي.. قلت له:

- سعاد كويسة؟!

- سعاد كويسة متقلقش

- يبقي انت جاي تقبض روحي!.. جيت في وقتك.. أنا اللي ليا هناك أكتر من اللي ليا هنا.

- تفتكر انا لو عايز أقبض روحك هجيلك بنفسي.. أنا ممكن أقبض روحك بزرار واحد وأنا قاعد على مكتبي..أنا جيت أرجعلك روحك.. مجتش عشان آخدها.

ثم دخل إلى الشقة دون دعوة.. جلس على أول مقعد.. لاحظت من حركته أنه بالفعل عجوز جدًا.. أكثر مم كان يبدو عليه في زيارتي الأولى له في القصر المهيب.. كان رجلًا عجوزًا طاعن في

السن.

سعل مرات ومرات ووضع يده على صدره يتحسس قلبه على ما أعتقد.. ثم هدأ نفسه قليلًا فتابع كلامه:

- أوعى تفتكر يا يونس إن اللي انت فيه ده معداش عليا.. والكابوس المخيف اللي بيطاردك ده أنا ما اعرفوش.. يا ابني أنا عشت فيه سنين.

فاجأني كلامه غير المتوقع فقلت:

- حضرتك تقصد إيه؟

لم يلتفت إليَّ.. نظر إلى سجادة الصالون العتيقة وتابع:

- هي سعاد قالتلك مامتها ماتت إزاي؟!

لم نتطرق أنا وسعاد إلى هذا الموضوع أبدًا.. كنت أتحاشى الكلام عن سيرة الموت طول الوقت.. رد عليَّ قائلًا:

- اللي جه في بالك صح.. نفس المرض.. سرطان في الغدد الليمفاوية.. تخيل بقى إن حالة مامتها كانت أحسن من حالتها بكتير وكانت بدأت تخف وكنت بدأت أشبط في الأمل زي العيل الصغير وفجأة.. نمت صحيت ملقيتهاش.. لولا وجود سعاد في حياتي أنا كنت اتجننت أو انتحرت أو انتهى بيا الأمر مشرد في الشوارع.. الصدمة كانت أكبر من إن عقلي يستوعبها بس ربنا كبير!

- يعني المرض كان وراثة من البداية؟

لم يرد على سؤالي.. بدا أنه لم يسمعني من الأساس.. تابع محدثًا نفسه وهو مازال ينظر إلى السجادة:

- عارف يا يونس.. انا خلفت سعاد وأنا عندي ٥٦ سنة.. سعاد كبرت لقيتني شعري كله أبيض وفي إيدي عكاز.. زمايلها في المدرسة كانوا بيفتكروني جدها مش أبوها.. لحد ما لقيتها جاية في يوم بتقولي بابا أنا خايفة تموت وتسيبني!.. قولتلها أنا مقدرش أوعدك إني أعيش على طول بس أوعدك إني طول مانا عايش هعيش كل دقيقة عشانك إنتي.. وهعمل كل اللي أقدر عليه عشان يوم ما أموت تبقي قادرة تعتمدي على نفسك وتعيشي من غيري.. والأيام أهي عدت.. وكبرت سعاد وجالها نفس المرض وبقيت أنا اللي خايف إنها تموت وتسيبني.. مش كل اللي انت خايف منه هيحصل.. وحتى لو حصل.. عيشه.. لو فضلت طول عمرك خايف من الموت.. هتفضل طول عمرك ميت من الخوف.

ثم نظر إلى بحدة وكانت نظرته الأولى التي أرى فيها ذلك الأب المرتجف الخائف على ابنته بحق:

- انت وسعاد بتحبوا بعض.. هي متعرفش إني جيتلك هنا.. وأرجوك ياريت متعرفش.. هيفرق معاها أوي لو حست إنك فوقت ورجعتلها من نفسك.. شوف هتعمل إيه لو النهاردة آخر يوم في حياتك يا يونس.. وعيش كل يوم على إنه آخر يوم عشان حتى يوم ما الموت يحس إنه هينتصر عليك وهيخطف حد منك.. تبقى شبعان منه وعامل حساب المقابلة اللي في الناحية التانية.. الموت مش بعبع يا يونس.. لأنه في الأول وفي الآخر قدر ربنا.. والجاي مش وحش لأنه لسه محصلش.. والماضي انساه لإنك مش هتعرف تغيره.. حب الحياة يا يونس حبها عشان خاطر نفسك وعشان خاطر سعاد.. متعملش زي اللي فضل متبت طول عمره على حاجة وأما فاق لقى نفسه ماسك الهوا.

* * *

لطالما أخبرتني أمي أن معظم خلافاتها مع أبي كانت أثناء سفره.. كانا تحت ضغط معظم الوقت.. وبعد فترة تحولت الجوابات الغرامية إلى مشادات..حيث لم تتحمل أمي لهيب الوحشة.. وكانت تريد من أبي أن يعود ويسرع في ترتيبات الزواج.

كانت ثلاث سنوات كافية لتفقد أمي صبرها على غربة أبي.. فكان اتفاقهما الأول أنها مجرد سنة.. وتغيرت الظروف فصارت ثلاث.. لم تتحمل أمي ذلك وخيرته بينها وبين السفر في خطابها الأخير.. لم يصل رد أبي.. وقرابة شهر كامل لم يُرسل أبي أي شيء.. لا رسالة.. لا مكالمة.. لا خبر.. لا جديد.. حينها ظنت أمي أن كل شيء قد انتهى وأنه اتخذ قراره بالفعل.. كانت تلك هي الفترة الأسوأ على مدار علاقتهما.. إلى أن وجد جدي أبي يطرق باب منزله الساعة الثانية فجرًا.. هكذا إذن.. قرر أبي اختيار أمي وهكذا كان يفعل في كل مرة.. فقد كانت أمي ليلتها في المستشفي تبيت مع إبنة خالتها التي خضعت لعملية جراحية طارئة.

لم يتنظر أبي حتى الصباح.. وإنما ترك حقائبه أمام الباب وهرع إلي أمي.. وتحكي أمي عن هذه اللحظة قائلة

«محدش فينا اتكلم.. محدش نطق حرف واحد.. فضلنا باصين لبعض بس.. عارف أم كلثوم وهي بتقول

(قابلني والأشواق في عنيه بتسلم؟!).. أهو سلم وخد إيدي في إديه.. وهمس لي قالي الحق عليه.. نسيت ساعتها زعلنا ليه!..فين دموعي دي اللي ما غابت ليالي.. بابتسامة من عيونه نسهالي.. عارفة الأغنية وطول عمري بسمعها إلا إن المرة دي حسيت إنها جديدة.. وإني بسمعها لأول مرة.. مفيش في الدنيا دي كلها أدفى ولا أحن من إحساس الرجوع لحد بتحبه.. بتحس إنك مش صالحته هو بس.. ده إنت صالحت الدنيا كلها».

ربما كتب علي أن أعيش نفس التفاصيل تقريبًا لكن لم ترافقني أم كلثوم هذه المرة.. رافقني عمرو دياب وهو يقول «أديني رجعتلك.. أديني بين إديكي.. كفاية دموع بقى مش عارف أشوف عنيكي».. ذهبت حاملًا في يدي الورد والأمل.. واتصلت بها.. لم تجب.. تركت لها رسالة كتبت فيها «إنزلي.. أنا واقف تحت».. خرجت لتتأكد وعندما رأتني بكت كما لم تبك من قبل.. اختلطت عليها مشاعر العتاب بمشاعر الحب.. لم تعرف حينها أتصفعني أم تلقي بنفسها في حضني.. قالت لي «أكرهك».. ولكن كنت أعلم أن «أكرهك» تلك تساوى «ألف أحبك» مجتمعة.. كنت أمسح عينيها وأضحك وأقول لها «مش هسيبك تاني أبدًا مهما حصل.. سامحيني الحزن اللي جوايا كان أقوى مني».. حينها تمسكت بيدي وقالت لي:

- حرام عليك.. أنا كنت هموت يا يونس.. لو غيبتك كان طالت أكتر من كدة والله كنت هموت.. أنا عمري ما كنت بحس إني لوحدي حتي وأنا لوحدي.. بس من ساعة ما حبيتك وقررت تمشي كأني ملياش حق عليك ولا ليا فيك أكتر منك وأنا حسيت إني لوحدي رغم إن كل الناس حواليا.. الدنيا استقوت عليا في غيبتك عني.. حسيت إنه خلاص كده.. وإن ده العادي لإن الحلو مبيكملش.. بس كان طول الوقت جوايا حاجة بتقولي "بيحبك".. "هيرجع".. "مستحيل تخلص على كده".. كان عندي أمل إنك ترجع يونس اللي أنا أعرفه.. مش يونس اللي الحزن خطفه مني.. أنا استنيتك كل ده وكنت مستعدة أستناك قده عشر مرات.. أنا مواريبش غيرك.. أنا كنت مصدقاك وعارفه إنك قد كلامك وإنك هتاخد وقتك في الحزن وترجع.. ترجع عشان لسه قدامنا مشوار طويل أوي لازم نكمله.. واتأكدت أكتر من إحساسي لما شفت أول صفحة في الجرنال عليها اسمك وصورتك الأسبوع ده.. كنت فخورة بيك وبنجاحك قوي.. حتى وانت بعيد.

كانت كلماتها مهمة جدًا لأني لولاها ما استفقت وما أدركت كم أنا مهم بالنسبة لها.. كنت دائمًا اكرر تلك النكتة من فيلم seven pounds.. التي تحكي قصة الرجل الذي كان يغرق فمر عليه قارب وقال له:

- «أتريد المساعدة؟!»

فرد عليه:

- لا الرب سوف ينقذني

ثم أتى قارب آخر وقال له:

- «أتريد المساعدة؟!»

فأجابه أيضًا: «لا الرب سوف ينقذني» وعندما مات الرجل وصعد إلى السماء.. سأل لِمَ لْم تنقذني:

فجائته الإجابة:

- لقد أرسلت إليك قاربين!!

هكذا تأتي الإشارات دومًا.. مبهمة لكي يجتهد الإنسان في تحليلها وفهم ما تتضمنه وماذا يريد منه الله أن يفعل.. لن تسمع هاتفًا من السماء يقول لك افعل كذا ولكن سترى قدرك يسوقك إليه.. فلا تقاوم ولا تتجاهل الإشارات.. لكي لا تغرق في بحر السذاجة.. الحمد لله الذي جعلني أدركت بحكمته مضمون رسالته قبل فوات الأوان.. فالحياة لا تمنح مثل هذة الفرص مرتين.

قلت لسُعاد:

- هو كده يبقي فاضل كام أمنية؟!

- كده يبقي فاضل ٦

- أحققهوملك وتسبيني في حالي مدى الحياة؟!

- لاء.. تحققهم.. ونكتب قايمة جديدة تحققهالي برضو.

- طب وانا مين يحققلي أمنياتي؟!

- أنا أمنيتك ولا مش كفاية؟!!!

- لا طبعًا.

- لا طبعًا إيه بقى إن شاء الله.

- لا طبعًا كفاية.

- انت عارف ايه هي الأمنية رقم ١٠.. اللي سبت السطر بتاعها فاضي؟!

- ايه يا تري؟

- يعني أمنية كدة ليها علاقة بخاتم وفستان أبيض وتنزل على ركبتك كده وتقولي كلمتين حلوين ون......

- ون إيه؟!

- ونتجوز يا يونس؟!

- ياه لو صبرتي دقيقة بس.. غمضي عنيكي.. ثانية كمان.. دلوقتي بقى فتحى!

- إيه دول

- دول خاتمين واحد ليا وواحد ليكي.. مكتوب على الخاتم بتاعي "ولعل ما تخشاه ليس بكائنٍ" ومكتوب على الخاتم بتاعك "ولعل ما ترجوه سوف يكون".

- الله.. ايه ده بجد يا يونس. أنا مش بحلم؟؟

- أنا عشت طول عمري لوحدي ومش عايز أعيش لوحدي تاني.. عايز أعوضك وأعوض نفسي عن كل الوقت اللي راح وأنا خايف أو متردد أو هربان.. عايز أواجه كل اللي خوفت أواجهه السنين اللي فاتت دي كلها.. عايز ألاقي العيلة والبيت والونس.. عايز يبقي عندنا بيت واسع كبير مليان عيال.. بعيالهم بعيال عيالهم.. عايز البيت الفاضي دلوقتي ده.. يتملي بحسهم ودوشتهم طول العمر..أنا محروم بقالي كتير أوي من طعم الدنيا الحلو واكتشفت أنها كانت غلطتي أنا.. أنا اللي قعدت في الضلمة وتخيلت إن الشمس مش موجودة مع إن كل اللي بيني وبين الشمس كان ستارة!.. ستارة أنا اللي حطيتها قدام نفسي عشان مش عايز أشوف الحقيقة..

- وأنا كمان.. أنا حسيت بعد ما حبيتك إني كنت مفوته عمر كبير قوي فيه مكان للسعادة أنا اللي كنت مش بدخله بمزاجي.. لحد ما قابلتك يا يونس.

- أنا كنت مفوت على نفسي فرص كتير أوي للسعادة.. بس ملحوقة.. كل ده هيتعوض بإذن الله.. مش هسيب الخوف يسيطر عليا أو يقطم من قلبي حتة تاني.. أنا قررت أكمل حياتي بالشكل اللي يسعدني ويرضيني صدقيني أنا بقالي كتير أوي هربان.. عايز أواجه.. عايز أقف في وش الخوف شوية.. عايز أقوله إني قوي وإنه مش هينتصر علي تاني.. قوي عشان خاطر ماما وعشان خاطر مها وعشان خاطرك انتي كمان يا سعاد.. مستحيل الخوف ينتصر على واحد بيحب بجد.. ده اللي أنا أعرفه ومتأكد منه!.. نقطة ومن أول كل حاجة في الحياة النهاردة!

* * *

- ١٢ -

(الإنسان يعيش مرة واحدة)

بعد ٨ سنوات

تبدأ حياة الإنسان بالفعل عندما يدرك إنه ليس لديه الكثير من الوقت ليضيعه بالالتفات إلى ما حدث أو محاولة إصلاح ما لا يمكن إصلاحه.. يجب على الإنسان أن يتعامل مع الأحداث السيئة على أنها مجرد موجة.. كلما حاول مقاومتها كلما عانى الأمّرين.. لكن ما ينبغي عليه فعله حقًا هو ألا يقاوم.. وألا يعترض ولكن يستعد ويزيد من فرص النجاة.. يجب عليه ألا ينظر لما فقد ولكن لما بقى.. ويجب عليه أن يدرك أنه يمكنك دائمًا البدأ مرة أخرى.

قرأت سعاد ذلك الجزء من مقالي الأسبوعي في جريدة الأمل..أثنت عليه كثيرًا قائلة:

- ياااه.. فاكر أو مقال كتبته يوم ما اتقدمتلي زمان.. هو ده يونس اللي أنا أعرفه.

مضت ثمان سنوات كاملة على زواجنا.. رزقنا الله فيهم بـ «مها».. تعودت أن أناديها مها الصغيرة.. تلك التي لم تعوضني عن مها فحسب.. فقد عوضتني عن كل ما فقدته في حياتي.. حينما رزقنا الله بها شعرت أني أنا عدت طفلًا.. استعدت معها مفتاح البهجة الذي كان قد ضاع مني.. تجبرني على العودة إلى المنزل باكرًا.. وأقضي معاها الساعات في حل واجب الرياضيات.. يا إلهي كيف أجعلها تفهم أن حالي كحالها وأنى لست أينشتاين.. من الآن وأنا أحمل هم شرح القسمة المطولة على عاتقى ولا أعلم كيف سأخبرها أنني بالكاد أقسم رقمين على مثلهما.. لكن هكذا هن البنات.. تستطيع ابنة الستة أعوام تلك ببرائتها أن تحصل على كل ما في قلبي من حب وكل ما في جيبي من حلوى.. هي لم تغير حياتي فقط.. هي بدأتها بالفعل.. فأنا أكلمها منذ أن كانت دقات قلب فقط ونقطة سوداء تظهر على السونار.. تعلقت بها حتى جاءات.. كنت أقضي الليل بطوله محاولًا جعلها تنام.. كانت تضع وجهها الملائكي على كتفي. وأنا أغني لها بعض من أغاني الأطفال التي كبرت أنا عليها.. كنت أجد نفسي أغني «ذهب الليل» قرابة الساعتين بشكل متواصل دون أن أمل.

اليوم أصبحت واحدًا من الكتاب المعروفين.. وقد جعل الله سعاد سببًا رئيسيًا في هذا فقد كانت ملهمتي ومصدر سعادتي الدائمة وشريكتي في كل لحظات نجاحي.

وضعنا «مها الصغيرة» في الفراش وتمنينا لها نومًا سعيدًا وأحلامًا رائعة.. ثم جلست مع سعاد نتصفح بعض من صورنا القديمة.. ووجدت صورة لنا من رحلة سنغافورة رحلة تحقيق الحلم التاسع.. كانت تلك الرحلة مميزة للغاية.. فقد قررت تحقيق حلم سعاد الآخر بأكل السوشي.. ورغم أنه لم يعجبها.. فقد أعجبني كثيرًا.. وأكلت حتى تورمت شفتاي.. ولا أقول هذا مجازًا.. فهذا ما حدث فعلًا.. لم أكن أعلم أنه قد يسبب الحساسية.. وانتهى بي الأمر في غرفة الطوارئ.. وبقدر ما كان الأمر كابوسًا إلا أنه أصبح ذكرى سعيدة.. نضحك عليها مرارًا كلما تذكرناها.

اليوم أصبح لدينا آلاف الذكريات.. صور وتسجيلات ومقاطع فيديو وما حُفر في الذاكرة كان الأعظم.

انظر إلى ذلك الخاتم في يدي بعد أن شُفيت سعاد وأقول «ولعل ما تخشاه ليس بكائنٍ» وتنظر إلى خاتمها حين يتسلل اليأس الي قلبي وتربت على كتفي وتقول «ولعل ما ترجوه سوف يكون»..

اليوم هو الأول من ديسمبر للعام ٢٠٢٤.. لدي تكريم في جامعة القاهرة عن مجمل أعمالي ككاتب.. ولدى تكريم في المنزل على مجمل تضحياتي كزوج.. لم أرد أن يمر هذا اليوم بشكل اعتيادي.. اتصلت بمحل الورد.. وطلبت منه أن يرسل باقة من أجمل الورود إلى منزلنا ويرفق معها تلك الكلمات «النهاردة يبقى فات على جوازنا ٨ سنين وعشرين أزمة وخمسين خناقة.. ومليون شكرًا.. وأنا آسف.. وحقك عليا.. مليون بحبك.. وكل بحبك جديدة أصدق وأدفى وأكبر من اللي قبلها.

مشاعر الامتنان.. الشكر.. الشكر على كل حاجة هي بتعملها عشاني.. الأكل الجميل واللبس المغسول المكوى.. والكلام الحلو والابتسامة اللي بصحى عليها.. حبها لي.. كل مجهود مبذول في سبيل سعادتي.. يستحق الشكر

الليلة أشعر أني ملكت العالم كله في يدي.. زوجة محبة.. وابنة محبة.. وأمان ودفء لا يدركه إلا من فقده يومًا.

نظرت وسعاد بين زراعي إلى السماء.. حيث كانت النجوم متراصة جوار بعضها البعض وكأنها تحتفل بنا هي الأخرى. وجهت بصري إلى السماء مخاطبًا الله قائلًا:

يا رب إني حاولت فأعنتني

يا رب لك الحمد والشكر

اليوم أعلن أني انتصرت على الخوف.. اليوم أعلن أنني أخيرًا صرت سعيدًا

* * *

تمت

مايو ٢٠٢١

فهرس الموضوعات

الإهـــداء ٥٥

- ١ - (طائر على الطريق) ٧٧

- ٢ - (تذكرة عودة) ١٧

- ٣ - (حياة النسور) ٢٩

- ٤ - (زيارة من صديق قديم) ٤٣

- ٥ - (ما يبدأ في ديسمبر.. يستمر للأبد) ٦١

- ٦ - (كرسي الاعتراف) ٧٧

- ٧ - (يا مرسال الهوى) ٨٥

- ٨ - (ابنة رجل مهم) ٩٣

- ٩ - (تلك هي الحياة) ١٠٧

- ١٠ - (من كُتر حلاوة الأيام) ١١٥

- ١١ - (زي الهوا!) ١٣٧

- ١٢ - (الإنسان يعيش مرة واحدة) ١٥٣